الرعي والمراعي

المراعي

المراعي مساحات شاسعة من الأراضي، يكسوها غطاء نباتي طبيعي يرعاه الحيوان. وتؤدي المراعي الطبيعية دوراً هاماً في الاقتصاد الوطني لكثير من بلدان العالم، لاعتماد إنتاجها الحيواني على ما توفره هذه المراعي من أعلاف طبيعية رخيصة.

والرعي أرخص طريقة لتغذية الحيوانات، حيث يقوم الحيوان بتحويل مواد نباتية، لا تصلح لأن يستعملها الإنسان بشكل مباشر تحت أي ظرف من الظروف، إلى لحم حيواني وإلى لبن صالح لغذاء الإنسان. ويعود رخص التغذية بالرعي أيضاً إلى قلة العمالة اللازمة.

وإضافة إلى أهمية المراعي في توفير غذاء للحيوانات التي يتغذى عليها الإنسان ويستفيد منها، فإن أثرها في صيانة موارد البيئة، خاصة صيانة التربة وزيادة خصوبتها وتحسين بنيتها وتنظيم الاستفادة من المياه الساقطة عليها، أمرٌ له أهميته الكبرى. فوجود الغطاء النباتي يقلل الأثر الميكانيكي لارتطام المطر بسطح التربة، ويمنع دكها وتراصها، كما يزيد من قدرة التربة على تشرب المياه نتيجة لتفككها بالجذور، ولزيادة مساميتها بسبب ارتفاع محتواها من المادة العضوية الناتجة عن تحلل البقايا النباتية والحيوانية فيها.

وتسبب النباتات النامية تماسك الطبقة السطحية من التربة التي تنتشر فيها جذور هذه النباتات، مما يجعل التربة مقاومة للانجراف بالسيول. كما تقلل النباتات النامية في أراضي المراعي من سرعة الجريان السطحي للمياه، الأمر الذي يؤدي إلى زيادة تسرب ماء المطر إلى باطن التربة وتشربها به. كما تساعد

نباتات المراعي، بخفضها لسرعة الرياح، على حماية التربة، حتى لو كانت مفككة، من أن تذروها الرياح.

وأخيراً يؤدي تفكك بقايا النباتات والحيوانات في التربة إلى زيادة نسبة المادة العضوية فيها، وتحسين بنيتها، وقدرتها على الاحتفاظ بالماء الساقط عليها. كما أن ارتفاع محتوى التربة من المادة العضوية يزيد من أعداد الكائنات الدقيقة والأوليات ونشاطها فيها، مما ينعكس إيجابياً على زيادة خصوبة التربة ورفع إنتاجيتها. كما تحمي النباتات الرعوية التربة من تأثير درجة الحرارة الجوية المرتفعة.

وتقدر مساحة أراضي المراعي الطبيعية في العالم بحوالي ١٩٪ من مساحة اليابسة، وهي نسبة كبيرة من مساحة بعض البلدان مما يجعلها ذات قيمة عالية من الناحية الإنتاجية، خاصة أنها من أرخص المصادر لإمداد الحيوانات المستأنسة بالغذاء. ويعدّ الرعي، في معظم بلاد العالم، الاستغلال الأمثل لكثير من الأراضي الهامشية، التي لا تصلح للزراعة التقليدية لضعف تربتها أو قلة المياه المتوافرة لها، أو المناطق ذات التضاريس الوعرة والمستنقعات والسباخ.

وتتباين المراعي الطبيعية عادة في غطائها النباتي، من حيث نوعيته وكثافته تبعاً للظروف البيئية السائدة، خاصة كمية الأمطار ودرجة الحرارة وخواص التربة الفيزيائية والكيميائية، ونمط الاستغلال (درجة الرعي)، ونوع الحيوان الذي يرعى فيه، وغير ذلك من العوامل المؤثرة.

ولاختلاف المناطق الجغرافية، وتباين أنواع التربة، والظروف البيئية السائدة فيها، يختلف الغطاء النباتي من منطقة إلى أخرى. ويترتب على ذلك وجود أنواع مختلفة من المراعي الطبيعية. فهناك المراعي الصحراوية في المناطق شحيحة الأمطار (أقل من ٢٠٠ملم سنوياً)، والغطاء النباتي فيها قليل الكثافة يتألف من نباتات متناثرة متباعدة بعضها عن بعض، وهي أنواع شجيرية صغيرة مقاومة للجفاف، ونباتات عشبية حولية، موسمية أو شبه موسمية، تنبت بذورها بعد سقوط الأمطار، وتمكث في المتوسط ما بين ٦-٨ أسابيع تستكمل فيها دورة حياتها. ويقتصر نشاطها الخضري على فترة الأمطار القصيرة، بينما تقضي فترة الجفاف، التي قد تمتد إلى بقية السنة أو إلى عدة سنوات تالية، على شكل بذور كامنة، أو على شكل

غطاء نباتي خفيف ومتباعد (حرة كشب)

أجزاء جذرية أو خضرية مطمورة في التربة (جذامير أو ريزومات، أبصال، درنات)، وتستعيد نموها في فصل الأمطار التالي. وقد ترتفع نسبة تغطية التربة بهذه النباتات خلال الفترة الرطبة من السنة إلى ٤٠٪، وقد تصل إلى ٧٠٪ في المناطق المنخفضة والأودية التي تسيل فيها المياه.

أما في المناطق التي تتراوح فيها كمية الأمطار السنوية بين ٢٠٠-٥٠٠ ملم فإننا نجد ما يطلق عليه مراعي السهوب، أو مراعي المناطق الجافة التي تنمو فيها الأعشاب القصيرة بكثافة عالية، مقارنة بالمراعي الصحراوية. ومع زيادة كميات الأمطار الساقطة، يزداد الغطاء النباتي كثافة، وتزداد نباتاته طولاً وتنوعاً. ويطلق على هذه المراعي اسم السافانا أو براري الأعشاب الطويلة. وقد تُعْطَى هذه الأنماط من أراضي المراعي تسميات محلية مختلفة في الأقطار المختلفة.

وتتباين إنتاجية المراعي تبعاً لتباين نوع التربة والظروف المناخية من جهة، ودرجة الرعي من جهة أخرى. ويتضح من تصنيف حالة المراعي في المملكة أن ٨,٤٪ من مساحات المراعي الطبيعية

غطاء نباتي كثيف (منطقة حائل)

مراعٍ منتجة ممتازة، حيث يصل متوسط إنتاج الهكتار فيها إلى ١٨٠ كجم من المادة الجافة في السنة، وأن ٣١٪ من مساحات المراعي تُصنَّف على أنها مراعٍ جيدة يبلغ متوسط إنتاج الهكتار فيها نحو ١٢٠ كجم من المادة الجافة في السنة. وهناك نسبة ٣٢,٥٪ من مساحات المراعي تعدّ مراعي متوسطة يصل متوسط إنتاج الهكتار فيها إلى ٨٨ كجم من المادة الجافة في السنة. أما المساحات المتبقية، التي تمثل ٢٨,١٪ من مساحات المراعي في المملكة، فهي مراعٍ فقيرة لا يزيد متوسط إنتاج الهكتار فيها عن ٣٥ كجم من المادة الجافة في السنة. وينذر واقع الحال، أي تحت ظروف الرعي الممارَس حالياً في معظم نواحي المملكة، بأن هذه النسب ستتغير بحيث تتحول نسبة ملحوظة من أراضي المراعي الممتازة والجيدة إلى مراع متوسطة أو فقيرة. ويعود ذلك إلى انتشار ظاهرتي الرعي والاحتطاب الجائرين بما يفوق الطاقة الإنتاجية للمراعي، إلى جانب النشاطات البشرية الأخرى المدمرة للنظم البيئية فيها.

وتتأثر إنتاجية المراعي بعدة عوامل، منها أنها تتركز في مواسم هطول

الأمطار، وتتفاوت من حيث الزمان والمكان، أي من منطقة إلى أخرى، ومن فصل إلى آخر ومن سنة إلى أخرى. ويعود ذلك إلى عدم انتظام سقوط الأمطار زمانياً ومكانياً، وتباين كمياتها تبايناً كبيراً. كما ترتبط إنتاجية المراعي بنسبة تمثيل أنواع النباتات الرعوية النامية فيها للمجموعات النباتية ذوات القيم الرعوية المتباينة، مما يؤثر على قيمتها العلفية زمانياً ومكانياً أيضاً. وتختلف نسبة تمثيل المجموعات النباتية من الأشجار، والشجيرات، والأعشاب عريضة الأوراق، والنجيليات المعمرة، والحوليات، في الإنتاج الكلي العلفي من المراعي الطبيعية تبعاً لعوامل كثيرة، منها كمية الأمطار الساقطة سنوياً، وعدد مرات هطولها، وتوزعها، وطبيعة الغطاء النباتي، وبرامج إدارة المراعي، ودرجة استغلالها. ولذلك فإن القيمة الرعوية للأنواع النامية في المراعي الطبيعية قد تقترب أو تبتعد عن حالة التوازن الغذائي المطلوبة في غذاء الحيوان، تبعاً لاختلاف العوامل السابقة. وعلى سبيل المثال، فإن الجدول التالي يوضح كمية الإنتاجية النباتية الكلية لمنطقة الحماد شمالي المملكة لعامي ١٤٠١-١٤٠٢هـ معبراً عنها بوزن المادة الجافة بالكيلو جرام في الهكتار الواحد، علماً بأن الإنتاجية الرعوية تمثل ٥٠٪ من الإنتاجية الكلية.

طبيعة المنطقة	١٤٠١هـ	١٤٠٢هـ
منطقة متحجرة	٦٨كجم	١٤٧,٥كجم
فيضة	١١٠كجم	٢٢٦كجم
فيضة أخرى	٤٦كجم	٤٦٦كجم
سفح جبلي	٢٦كجم	١٩٤كجم
منطقة انتقالية	-	١٨١كجم
منطقة رملية تسودها أشجار الغضا	١١٦كجم	٦٧كجم

ويتضح من الجدول التباين الكبير في إنتاجية المراعي، من حيث الزمان والمكان، نتيجة لتفاوت العوامل السابق ذكرها.

وتحدد القيمة الرعوية لأي مرعى بمدى استساغة الحيوانات للأنواع النباتية النامية فيه. فهناك مجموعة أنواع نباتية مرغوبة جداً، أي ذات درجة استساغة عالية، وأفضلية شديدة عن غيرها من الأنواع النباتية الأخرى، حيث تُقبل حيوانات المراعي على رعيها كثيراً مما يؤدي إلى التناقص التدريجي، وربما تختفي كلية في النهاية، خاصة عندما تكون أعداد الحيوانات أكبر من الحمولة الرعويّة للمرعى. وهناك مجموعة أنواع

نباتية مرغوب بها بدرجة أقل، أي ذات درجة استساغة متوسطة. وتنمو هذه الأنواع في المرعى بكثافة أقل من سابقاتها، لكنها سرعان ما تأخذ في التزايد والاتجاه نحو السيادة، على حساب تناقص الأنواع ذات الاستساغة العالية نتيجة لرعيها رعياً جائراً. وعندئذ تقل القيمة الرعوية للمرعى ما لم يتم التدخل لتنظيم الرعي فيه، وإعطاء الفرصة للأنواع المرغوب بها لاستعادة سيادتها في المرعى. وهناك مجموعة ثالثة من الأنواع النباتية غير مرغوب بها، أو تكون في المرعى بنسبة ضئيلة، لا تنافس المجموعتين السابقتين. ويمكن لنباتات هذه المجموعة أن تنمو وتتكاثر وتزداد نسبتها زيادة واضحة بحيث تسود المرعى. ويحدث ذلك عادة عندما تتناقص أعداد الأنواع الأخرى، خصوصاً المرغوب بها، تناقصاً كبيراً بحيث تفسح المجال لنمو الأنواع غير المرغوب بها وسيادتها في المرعى.

المراعي الطبيعية في المملكة

أوضحت الدراسات التي أعدتها إدارة المراعي في وزارة الزراعة والمياه أن أراضي المراعي في المملكة تشغل مساحة ١٦٨,٥ مليون هكتار، أي ما نسبته ٧٤,٩٪ من إجمالي مساحة المملكة، وذلك بعد استبعاد ٨٥٪ من مساحة الربع الخالي باعتبارها مراعي عَرَضِية تجود على فترات زمنية متباعدة. هذا مع أن بعض أجزاء الربع الخالي نادراً ما تكون محلاً، وأهل البادية يستدلون من كمية الأمطار الساقطة على الربع الخالي على طول المدة التي ستبقى فيها النباتات قابلة للرعي وذلك بطريقة الحفر. فإذا تسرب الماء من سطح التربة إلى عمق يصل إلى المرفق كانت المراعي صالحة لسنة كاملة، وإذا تسرب إلى عمق نصف الذراع كان صالحاً لسنتين. أما إذا حفروا ولم يصلوا إلى الماء دلَّ ذلك على أن المرعى سوف يكون جيداً لثلاث سنوات.

ومن أهم نباتات الربع الخالي الأرطى ويسمونه هناك العَبَل، إلى جانب الزَهْر والثداء، والبركان، والحاذ وهو من أنواع الحمض، والنصي والسبط والقصباء. وإذا هطلت على الربع الخالي أمطار ربيعية نما فيه السعدان والتربة (الغريرا). ولكن لصعوبة رماله لا يرتاده إلاَّ أصحاب الإبل السود (المجاهيم). ولا يرغب فيه رعاة الأغنام لسببين، هما بُعد مصادر المياه ووجود نبات الزهر الذي يصيب الأغنام في أول انتشاره بمرض ينفخ رؤوسها

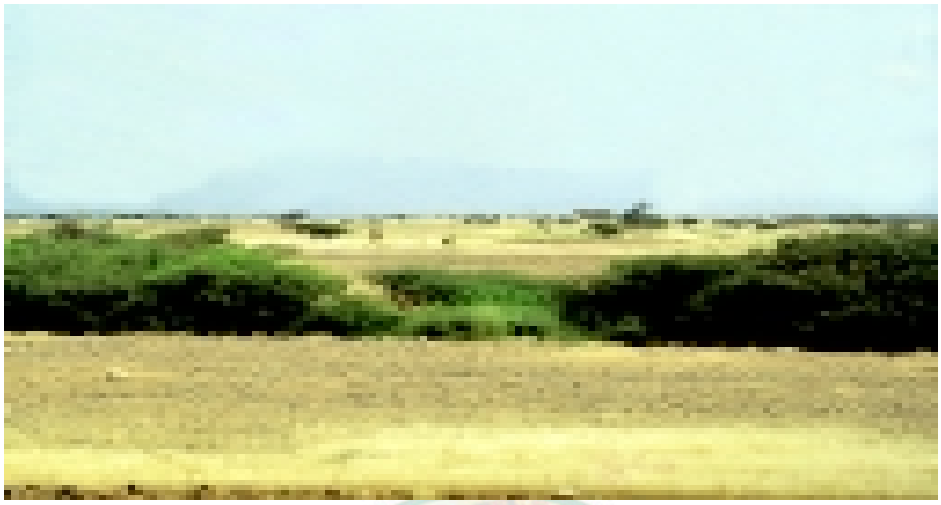

من مراعي السهل الساحلي (وادي جازان)

فتموت. وعلى الرغم من ذلك فإن الربع الخالي من أقل المناطق التي تتعرض للرعي الجائر.

وتعد مراعي السهل الساحلي من أجود المراعي في المملكة، وهي مجموعة من السهول بين الأودية الكبيرة والمتوسطة ذات التربة الجيدة التي تستقبل السيول المنحدرة إليها من أعالي الجبال بتهامة عسير والحجاز حاملة معها تربتها الخصبة. ومن هذه الأودية وادي جازان، ووادي ضمد، ووادي صبيا، ووادي بيش، ووادي عتود، ووادي ضلاع، إضافة إلى أودية حِلي وقتونة ويبه والشامة ودوقة. وتمتد هذه الأودية من جازان في أقصى الجنوب الساحلي، حتى القنفذة والليث جنوبي جدة.

ومن أفضل المراعي في المملكة أيضاً مراعي مرتفعات الحجاز خاصة تلك الواقعة منها فيما بين الطائف وأبها وما حولهما، بسبب كثرة أمطارها وتعدد مواسمها واعتدال مناخها، مما يتيح الفرصة لنمو غطاء نباتي رعوي متنوع وفير نسبياً. ومعظم هذه المراعي أحمية قديمة لا يزال بعضها محمياً. وهناك مراع أخرى في سفوح جبلية وأودية وسهول كثيرة منتشرة في المنطقة، ومن ذلك حمى سيسد بشمال شرقي الطائف، الذي يتميز بتربته الخليطة من الرملية والرملية الغرينية (الطميية) المترسبة من المناطق الجبلية المحيطة به، وسهل رُكْبَة شمالي الطائف، ذو التربة الرملية العميقة، وسهل الجُبُوب جنوبي الطائف، ذو التربة الرملية الجيدة.

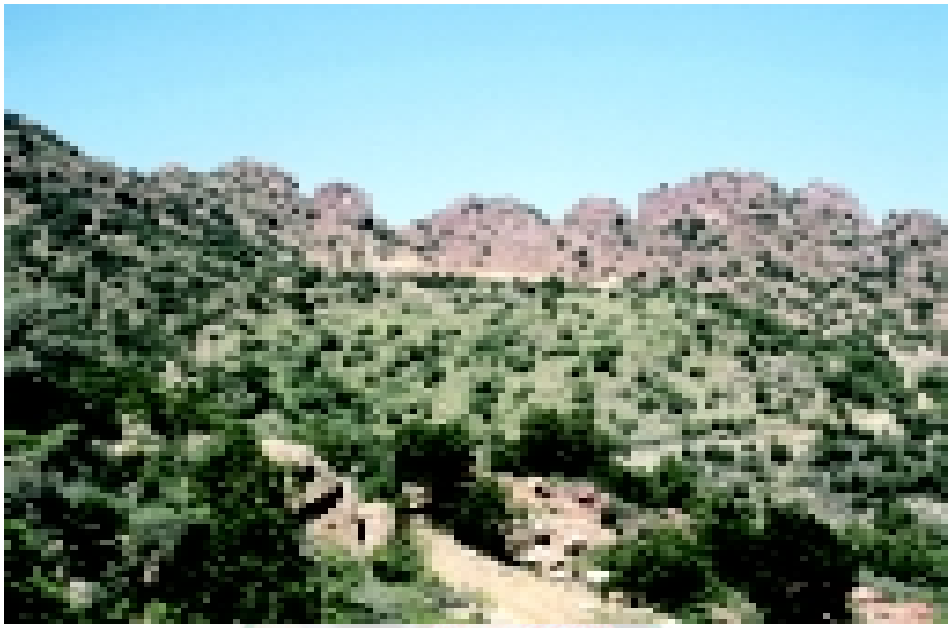

مراعي المرتفعات وتشاهد أشجار العريعر (جبال الهدا – الطائف)

ومنها أودية رَنْية والخُرْمَة وتَرَبَة، وهي ذات تربة رملية يختلط الرمل في بعضها بالحصى. ولانخفاضها عن مستوى المرتفعات، فهي حارة جافة صيفاً وأمطارها أقل كميةً، وإنتاجيتها أقل نوعاً.

ومنها حِمَى بني سار شمالي بلجرشي، وبعض أحمية الباحة، وهي ذات ترب بركانية جيدة وأمطار وفيرة، جعلت الغطاء النباتي الرعوي فيها جيد النمو غزير التنوع.

ووادي البيج قرب أبها، وبعض المساحات الرعوية قرب خميس مشيط. وهي ذات تربة بركانية جيدة تتميز بوفرة أمطارها، وتشبه نباتاتها الرعوية إلى حد كبير نباتات حمى بني سار.

أما مراعي المنطقة الوسطى فإنها تتفرق في أنحاء منها تشمل بعض الأحمية وبعض الأودية، والمناطق الرملية، والروضات. وأهم هذه المراعي حمى وادي حريملاء، الواقع شمال غربي الرياض، وتربته رملية طمييية منقولة مختلطة ببعض الذي حملته السيول الشتوية القوية، والدهناء، شمال شرقي الرياض، ذات الكثبان الرملية الحمر، وحمى الغضا غربي عنيزة بالقصيم، حيث المساحات الرملية ذات الكثبان التي تعدّ امتداداً

مراعي المنطقة الوسطى

لأجزاء من القسم الجنوبي لصحراء النفود ووادي الرُّمَّة، وهو من أكبر الوديان بالمنطقة الوسطى حيث التربة الرملية الطميية والطينية المحتوية على نسبة من الملوحة.

وتقع أهم المراعي التي تحتويها المنطقة الشمالية في صحراء النفود والمناطق الواقعة إلى شماليها حول كل من الجوف وسكاكا وعرعر ورفحا والقريات. بالإضافة إلى المراعي المنتشرة بمنطقة تبوك ومنها النفود، خاصة الجزء الشمالي منها، ذات الكثبان الرملية الهائلة. والفياض كما في فيضة التَّمْرية، شمال سكاكا، وهي المناطق المنخفضة التي تتجمع فيها مياه الأمطار الفائضة من الهضاب المحيطة بها. وتحتوي تربتها، الناعمة غالباً، على شيء من الملوحة البسيطة. ومناطق الحماد، الواقعة شمال الجوف، حيث يفترش الحماد (الحصى الصغير) أجزاء كبيرة من سطح الأرض، لكنه يسمح بنمو كثير من النباتات الرعوية المعمرة على الرمال المتجمعة. ووادي عرعر والوديان الصغيرة المتفرعة منه، وتحيط به تلال جيرية. والحرات المتمثلة في حَرَّة الحَرَّة التي تمتد إلى الشمال بمحاذاتها إلى الشرق منها، وتمتد من شمال غرب الجوف إلى جنوب شرق القريات. وهي

مراعي المنطقة الشمالية (تبوك)

ذات صخور بركانية منتشرة فوق سطح الأرض، تترك بينها فجوات ومنخفضات تتجمع فيها التربة والمياه، كما يتخللها بعض الأودية والمسايل المائية وهي من المناطق التي حُميت حديثاً. ووادي السرحان، الواقع إلى الجنوب الشرقي من القريات، وبه عدة مواضع يختلف كل منها في تركيب التربة؛ فمنها السبخة شديدة الملوحة، ومنها الرملية، ومنها الرملية الطمية، ومنها الرملية الطينية. والوادي الأخضر، الواقع جنوبي تبوك، ويتميز بتربته الرملية الطمية العميقة. وعيينة، القريبة من بئر ابن هرماس شمال غربي تبوك، وهي ذات تربة رملية عميقة تنتشر بها بعض الكثبان. وتلال الشَّرَف الجبلية، الواقعة بين تبوك وحقل، ذات التربة الرملية البركانية المترسبة من التلال.

وهناك عدد من المراعي الأخرى المتناثرة في بعض أجزاء المملكة منها مراعي أودية المدينة المنورة، وسفوح جبالها الشمالية والأودية المتفرعة منها، ومراعي حائل وما حولها، مثل منطقة غرب وجنوب جبل أجأ وما بين جبال أجأ وسلمى ورمَّان ومنطقة العش وأبو نمر وضرية إلى مدينة الروضة وما شرق وجنوب جبل سلمى إلى مدينة سميراء ومنطقة وادي الشعبة إلى مدينة الغزالة ومنطقة الغبية إلى مدينة

السلمى، ووادي الرمة إلى جبل العلم. ومراعي وادي الدواسر ووادي تثليث، ومراعي نجران حيث المساحات الرملية الممتدة من أطراف الربع الخالي. وهناك بعض المراعي بالأطراف الشمالية والشمالية الغربية للمنطقة الشرقية بالمملكة.

طرق الرعي التقليدية عند البدو

الرعي نمط من أنماط معيشة الإنسان، تمكن به من استغلال الموارد المحدودة المتاحة في البيئات الهامشية التي لا تصلح للزراعة. مع أن الاعتماد على النشاط الرعوي لم يقطع صلة الرعاة نهائياً بالزراعة ومنتجاتها، بل ظّل الرعاة والزرّاع على اتصال دائم وثيق. وقد أخذت العلاقة فيما بينهم أشكالاً تحددها الظروف الطبيعية والعادات والتقاليد. فالموارد التي يعتمد عليها الرعاة، هي موارد ذات طبيعة هامشية بالنسبة لحياة الاستقرار الزراعية، وهي موارد تتغير بتغير المكان والزمان. ففي بعض الفصول تكثر الأعشاب في أماكن، بينما تقل في أماكن أخرى. وقد تهاجم الآفات والحشرات الأعشاب في مناطق دون أخرى. وهذه الاختلافات المكانية والزمانية في توافر الأعشاب والأمطار هي الدافع الرئيسي لتحرك الرعاة، الذين يحرصون على حياتهم وحياة قطعانهم. ويتحرك الرعاة دائماً من مناطق القِلّة والندرة إلى مناطق الوفرة، وهذا الترحال قديم قِدَم مهنة الرعي. فقد كان أعراب الجاهلية يتنقلون بمواشيهم وبيوتهم وكل ما يملكون من عمق الجزيرة العربية، في سنوات المَحل، متجهين نحو الشمال إلى بلاد الشام والعراق للرعي والاكتيال. كما كانت بعض القبائل تهاجر إلى أبعد من ذلك كقبيلة بني هلال -على سبيل المثال- التي هاجرت من الجزيرة العربية إلى تونس. وفي ذلك يقول شاعر هلالي:

يانجد لو ان الجَفَا مِنك مَرَّه
صبرنَا ولكن الجَفَا مِنك دايمْ
يانجد وان جاك الحيا فازعجِي لِي
مع الطيْر والاّ ذاريات النسايمْ

ويظل أهل البادية على هذه الحال ما دامت بهم حاجة إلى التنقل وراء الماء والكلأ. وهكذا كانت سُنّة البدو في الحياة.

يعدّ نزول المطر عنصراً رئيسياً لتحديد منطقة الرعي. فإذا كان المطر وسماً (أي ابتدأ من أواسط شهر أكتوبر) بحثوا عن بوادر العشب مثل السعدان، والربلة، والقفعاء (الأتاويل)، والمكر، وكذلك

الحربث (على ألا يكون كثيراً لدى أصحاب الأغنام، لأنه مفيد إذا كان قليلاً ومميت للأغنام إذا كان كثيراً) والنفل والدعادع. أما إذا كان المطر صيفاً فإنهم يبحثون عن المعمَّرات من النباتات العشبية كالنصي والثمام والعرفج والسبط والجعدة. كما يفضلون الأرض التي بها أنواع من الحمض كالروثة، والرغل، والسُويد والعراد، والفرس، والرمث. وفي الربع الخالي يقتصر بحثهم على الزهر والثدّاء والبركان والأَرطى والحاذ، ويعدّ هذا الأخير من الحمض.

ويذكر فهيد المجماج رحيل البدو عند انتهاء فصل القيظ وعودتهم إلى ديارهم ذات العشب والحموض:

طَوَّوْا ورَوَّوْا وانتَووْا عقْبْ مِقْياظْ
ولا نيبْ راجيهمْ إلى جَرّة الحَوْضْ
يوم استقلّوا والمظاهيْر قِقّاضْ
غدا لهمْ دون المشاريفْ عاروضْ
يبونْ بّراقٍ على دارهم ناضْ
مختلطةٍ بهْ عشْبة الصيفْ وحْموضْ

طووا: طووا بيوتهم. رووا: ملأوا قربهم استعدادا للرحيل. انتووا: عزموا. إلى جرة الحوض: إلى عودتهم لورود الماء العام القادم.

ويفضل للضأن السعدان والشرشر والمكر والقفعاء والشتيل وبوادر العشب الأخرى. أما الماعز فيفضل لها أن تكون أرضها ذات أشجار كثيرة لأن رعيها للشجر أكثر من رعيها للنباتات الأرضية وخاصة إذا كانت مزهرة (بله) أو حيل (ثمار) وإن كان بها نباتات أرضية أخرى فلا بأس.

وفي موسم سقوط الأمطار يتتبع أهل البادية سقوطها ويلاحظون البرق، ويتأكدون إن كان خلفه مطر أم لا. فإذا لم ينزل عليهم المطر في ديارهم أرسلوا من يثقون به من العارفين بأنواع النبت لمعرفة الموقع الذي يستأهل الرحيل إليه من غيره، ويسمون هؤلاء (العسوس، جمع عساس)، يرسلونهم أول ما ينزل المطر ليروا مدى غزارته ويأتي الرائد يحمل معلومات عن المطر ودرجاته. وهي عند البادية: رش، وسواد مطر، وشد وطي (ويكون هذا في الأرض الرملية)، وتبييض أو بياض (أي أن يترك المطر بركاً مائية صغيرة بعد هطوله تبقى لفترة قصيرة)، وشاهد (وهو أن يسيل الماء في الأرض لمسافة قصيرة ويترك أثره على وجه التربة كأنما يشهد على نفسه). وشاهد قوي (وهو أقوى وأغزر من الشاهد) وقشع (وهو ما يسيل التلاع والمجاري الصغيرة) وسيل (وهو الذي تسيل منه الأودية الكبيرة).

أما في المناطق الرملية فيكون الإخبار عن أمطارها بالحفر فيقال حفر كف، حفر معصم، ملحم الذراع، كرسوع، زند، ماله حفر (لا حفر له).

وإذا سالت الأودية سألت البادية: أهي سيلة ظهر وبطن؟ أم بطن؟ أي هل سيله من جوانبه ومن مناشيه البعيدة أم سيله من جوانبه فقط؟ أم من مناشيه فقط؟ وسيل البطن له عدد من الأسماء (جذيب، عوير، بطن).

فإن كانوا أهل إبل فإنهم ينظرون إلى نباتات معينّة إن كان جيدة لرعي إبلهم، مثل السعدان والربلة والحشائش كالنصي. أما إن كان أكثر حيواناتهم من الغنم فإنهم ينظرون إلى أنواع أخرى تفضلها الغنم مثل الحربث والعضرس والدعاع والمكر والأثاويل (القفعاء) وغيرها، ومما هو جيّد لرعيها مثل الربل والحوذان. فيذهب الخبير ويتجول في المنطقة التي سقط عليها المطر، وينظر وديانها وسهولها وجبالها، ويلاحظ نوعية عشبها، ثم يرجع فيصفها لمن خلفه. فإن كان هو صاحب الكلمة في القوم، أمر بعد رجوعه بالرحيل أو بالبقاء، فإذا رغبوا في الرحيل توسطوا في المنطقة الجديدة. وتبدأ بعد ذلك مهمة الراعي، حيث يتوجه كل يوم وجهة جديدة، ويلاحظ عشبها ويرقب أغنامه أيضاً إن كانت بطونها ممتلئة أم لا. كذلك يلاحظ كبار السن مدى شبع المواشي عند عودتها. وتؤكد ربة البيت ملاحظتهم بما تراه من كمية الحليب بين كل يوم وآخر، فيؤيدون الراعي على البقاء في بعض المناطق، وينهونه عن التوجه إلى مناطق أخرى. ويتم عادة اختيار المنطقة السهلة للضأن والحملان، والمنطقة الجبلية للماعز.

وتعدّ المنطقة جيدة للضأن إذا لاحظوا أنها تخرج فضلاتها مجتمعة كالبقر، أما إذا كانت أبعارها على هيئة دمن ومتلاصقة فإن المنطقة طيبة ولكنها أقل من الأولى، وأما إذا كان بعرها متفرقاً فمعنى ذلك أنها لم تنتفع كثيراً من المرعى. ويلاحظون الماعز عند بياتها فإذا صدرت منها أصوات (ونين) فذلك من الشبع وامتلاء بطونها.

والبدوي هو أفضل من كيَّفَ أسلوب حياته طبقاً لأحوال الصحراء الطبيعية. فحيث تيسَّر المرعى نزل، وحيث نَدَرَ قوض خيامه وارتحل. وللرعي في الجزيرة العربية منذ القدم نظم لا تقل شأناً، في وضعها وتطبيقها، عن نظم الحياة الحضرية الحاضرة. وهناك أدلة من العَالَم القديم، تشير إلى أن منطقة جنوب غربي آسيا، حيث تقع شبه الجزيرة العربية، كانت المهد الذي استؤنست فيه الحيوانات

لأول مرة. وحتى الآن لا يوجد اتفاق حول الطرائق التي تم بها إنجاز هذا الحدث الكبير. ويُعْتَقَد أن ظروف المناطق الجافة التي يقلُّ فيها صيد الحيوانات، هي التي كوّنت الحاجة الماسة إلى الاحتفاظ ببعض حيوانات الصيد حية، حتى تحين الحاجة إلى استهلاكها، وهذا أدى بالتالي إلى تدجينها.

ولم تكن تحركات أهل البادية عشوائية بغير خطة أو ضابط أو هدف، بل كانت تحركات منظمة تبدأ في مواسم معيّنة، وترتاد أماكن محددة في أوقات معيّنة أيضاً. وكان لكل قبيلة، أو جماعة رعوية، مناطقها التي لا تخرج عنها إلا في سنوات الجفاف. ويصدق هذا على البدو الذين يرعون الإبل أو الأغنام. وتفرض تلك التحركات المنظّمة نوعاً من حقوق الرعي، وهي حقوق تراعى بدقة، وتعترف بها الجماعات والقبائل المختلفة، حتى إن السلطات الإدارية تأخذ بها حين يثور نزاع بين تلك القبائل أو الجماعات.

وفي السابق كان لا بد من أخذ إذن من القبيلة مالكة الأرض. وأكثر من ذلك فالمنطقة الواحدة قد يتردد عليها للرعي عدد من الجماعات، ولكن في أوقات مختلفة محددة تحديداً دقيقاً، بحيث يحول ذلك دون وقوع الصراع والصدام بينها. وتؤكد هذه التنقلات على حقيقة إدراك البدو لأهمية المراعي، والحيلولة دون تدهورها. ففي سنوات الجدب يمكن إنقاذ القطيع عن طريق نقله وتحريكه إلى مواقع أخرى تتوافر فيها المراعي والمياه الكافية. وفي ذلك تجنب للرعي الجائر، وضمان للتنمية المستمرة المتواصلة للمراعي.

وكان للبدو من معرفتهم الواسعة وخبرتهم الطويلة بالنمط المناخي السائد في مختلف مناطق الجزيرة العربية خلال فصول السنة المتعاقبة، ما مكنهم من تنظيم خطوط رحيلهم وانتقالهم وراء المرعى، ومن دَفْع كل قبيلة إلى محاولة السيطرة على مناطق واسعة جيدة تتيح لها موارد كافية لقطعانها طوال السنة.

ومنذ عصر الجاهلية والبدوي يمارس مناشطه الاجتماعية والاقتصادية داخل إطار مكاني محدود هو ديرته، وإطار اجتماعي تنظمه الأعراف والتقاليد المرعية. فالديرة هي المنطقة التي تستوطنها القبيلة وتسيطر عليها. وكانت مساحتها، بما يتوافر لها من الموارد الطبيعية، كافيةً لأن تمد أفراد القبيلة بالضروريات التي تسمح لهم باستمرار دورة التنقل السنوية التي يمارسونها. وقد ارتبطت المساحات التي تسيطر عليها القبائل، إلى حد كبير،

بأمور كثيرة أهمها حجم القبيلة وقوة نفوذها وإمكاناتها الاقتصادية. وعلى سبيل المثال كانت لإحدى القبائل ديرة تغطي مساحة تزيد على خمسين ألف كم٢، وتشمل جزءاً من صحراء الدهناء وهضبة الصمان. وكانت المناطق التي تخضع لقبائل معيّنة هي مناطق ذات حدود معروفة، ولو أنها ليست ثابتة. ولا يُسْمَح للقبائل الأخرى باستغلال موارد هذه المناطق، وذلك بهدف توفير الكلأ والمرعى بصفة دائمة للقبيلة صاحبة الحق والحيلولة دون تدهور المراعي، ولو أدى ذلك إلى قيام الحروب بين القبائل.

ومن أجل الحفاظ على إنتاجية المراعي، كانت القبائل في سنوات الجفاف التي كثيراً ما يتعرض لها الرعاة، تعقد فيما بينها اتفاقات تسمح بأن تستغل كل قبيلة موارد مناطق القبائل الأخرى دون الالتزام بحدود الديرة، لمدة معيّنة، تجنباً للرعي الجائر الذي يعتبر سبباً رئيسياً في تدهور إنتاجية المراعي. فقد كان بوسع رعاة أي من القبائل إذا حل الجفاف ارتياد مناطق الرعي للقبائل الأخرى حسب اتفاقات متعارف عليها.

أما إذا لم توجد اتفاقات صلح ثابتة، فقد كان المتعارف عليه بين قبائل الجزيرة أنه إذا حل الجدب بأرض قبيلة أن يتاح لها الارتحال، لرعي مواشيها، في أراضي قبيلة أخرى يتوافر فيها المرعى المناسب، إن هي استأذنت في ذلك، وأذن لها، وحافظت على حقوق القبيلة المضيفة، وإلا فالحرب واقعة بينهما لا محالة، كما حدث بين قبيلة عتيبة المستوطنة بعالية نَجْد والحجاز، التي كان يتزعمها آنذاك الشيخ تركي بن حميد، وقبيلة قحطان التي تبسط نفوذها على أواسط نَجْد، برئاسة الشيخ محمد بن هادي. فقد عمّ جدب بأراضي عتيبة، فانتقلت بظَعْنِها إلى جوار قبيلة قحطان من غير استئذان منها بقصد الرعي، حيث تتوافر المراعي والمياه. لكن شيخ قحطان أمر قبيلة عتيبة بالعودة أولاً إلى ديارهم بظعنهم، ثم يطلبون الإذن بالمِرْباع، لأن مجيئهم بظعنهم يعني أنهم ينوون الإقامة، ولو لم يؤذن لهم. فأغضب ذلك شيخ عتيبة، فقالت امرأة ابن هادي (سارة) لزوجها «إن الرجل جاك مسبل ثيابه وقام من عندك قاصرة ثيابه عن عرب ساقه، إما أن تعطي الرجل مطلبه في المرباع، وإما أن تستعد للحرب». ولكن شيخ قحطان أذن أخيراً لعتيبة بالمرباع بشرط مراعاتهم حقوق الجوار، وردِّ كل ما تفقده قحطان من مواش، فقبلت عتيبة بهذا الشرط. وقد فقدت قحطان أربعة من الخيل،

وقعوداً من الإبل، فطلبها ابن هادي من ابن حميد فردها له. وكان بينهم في ذلك أَشْعار مشهورة.

وقد تأثر نظام مناطق بسط النفوذ القبلي بالتطورات الحديثة في نظم الحكم والإدارة، بعد صدور مرسوم ملكي سنة ١٣٧٣هـ (١٩٥٣م) يلغي مناطق نفوذ القبائل ويسمح باستخدام الأرض وآبار المياه في المناطق الرعوية لكل القبائل من دون تفرقة.

وليس للإبل وقت خاص ترعى فيه ويفضل أصحاب الإبل الذهاب بها إلى المرعى صباحاً ويعود بها في برودة المساء

راع على رحول، وفي الصورة إبل مجاهيم

وهذا أصلح لها. وللإبل صفات ترتبط بوقت رعيها، فهي مفلّيه وقت الضحى حتى العصر، ومعشّيه من العصر حتى المغرب، ومعتمه ثم سفير بعد المغرب إلى نصف الليل. وفي الليل يختار لها الراعي الأماكن الرملية حتى لا تؤذي الحجارة أرجل الإبل. ويوقد ناره لأن في ذلك أنسة لها في المرعى. وفي الصيف يرعون الإبل في الأراضي الباردة والمعتدلة، ويخشون عليها في ذلك الفصل منطقة الأغوار ومستنقعات المياه والذباب. وفي الشتاء لا يرعونها فيها خشية التَلَوُّخ، بل يرعونها في بطون الأودية.

وترغب الإبل في المرعى الذي لم يرع قبلها ويسمونه القفر وبه يُمدح الراعي. قال أحد الشرارات:

العشب وان صار ممروحي
ما تقبله شمّخ النيبي
نعمك الى صار سروحي
وإن ذعذعت ريحها عذيبي

وقد تختلف طريقة الرعي من قبيلة إلى أخرى، فنجد الراعي عند بعض القبائل يركب على إحدى الإبل، وتسمى قعده. وهذه الطريقة هي المفضلة لدى أهل المناطق الشمالية.

وفي المناطق الوسطى تختار ناقة لتذليلها (تدريبها) وتسمى ذلول كما

تسمى رحول (والرحول يطلق على الجمل والناقة وكلاهما يعد للركوب). وفي العادة يكلف شخص ذو خبرة بتدريب وتطبيع وعسف الذلول أو الرحول. وبذلك يصبح هذا الحيوان طيعاً ويستجيب لمن يطلب منه البروك أو النهوض والاتجاه نحو الراعي حين يشايع له. ويتحرك الراعي وبقية الإبل تتبعه، حيث يوجهها إلى المرعى الجيد وهو يشايع (ينادي) عليها؛ ويبدأ رعي الإبل في الصباح الباكر من المنازل أو الموقع الذي توجد فيه الإبل، ومن ثم يحجر (يعقل) أولادها، وتسمى المقهور، والمقهور تطلق على عدد من الحيران لا يزيد عن ٦-٧ حيث تجمع في مكان واحد تحت مراقبة الراعي فتترك أمهاتها ترعى بحريتها من غير أن يسمح للحيران برضاعتها، قال أحد الشرارات:

قُم اقهر الحيران لى ياخويران
النشر لو هو مبعدٍ يقربني
ما اشوف انا بيمضرب الوسم زيلان
غير ام سالم بالمحاير تغني

وأم سالم هي طائر المكاكي، وخويران هو الشخص الذي وجهت له هذه القصيدة وهو طفل يرعى الإبل ويراقبها ويسمونه الملحاق. ولا تبتعد الأمهات عن حيرانها بطبيعة الحال. فتظل الإبل ترعى حول

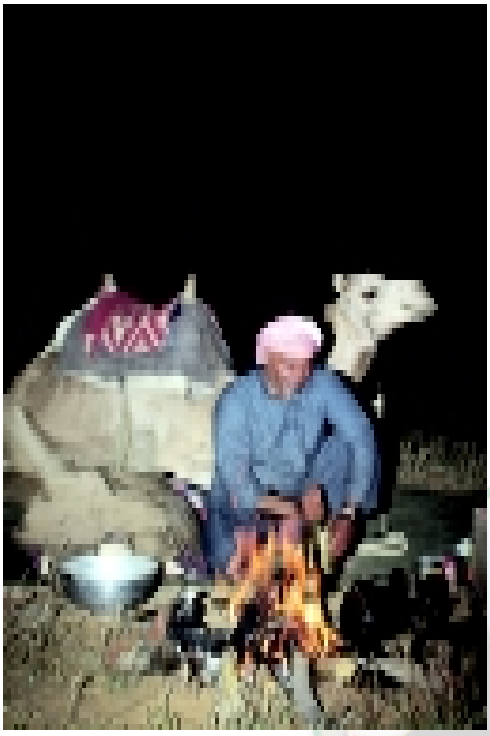

راعي إبل يُعد القهوة

أولادها حتى آخر النهار، ثم يطلق الراعي أولادها معها أو يوجهها إلى موقع آخر أو إلى منازله لتضوي، أي تصل بعد صلاة العشاء حيث تمرح الإبل حول بيت صاحبها. وقبل الفجر تحلب ثم تشمّل، أو تصرّ أي تربط ضروعها بالأعواد، ويتم التصرير إذا لم تكن لديهم شمايل لتشميلها. وتبقى في المنازل وحولها حتى طلوع الشمس، ليبدأ خروجها للمرعى ومعها أولادها، أو تمنع أولادها من الذهاب معها وهذا يعني أنها ستعود إلى منازلها في اليوم نفسه. أما إذا أراد الراعي

المعزاب، أي أنه سيغيب ليلة أو أكثر في المرعى، فيأخذ أولادها معها وتُترك لترعى مع أمهاتها. وقد يصل المعزاب إلى شهر ترعى فيه الإبل وترد على الماء، ثم ترجع إلى منزل صاحبها. وإذا كان موسم الربيع جيداً والمراعي متوافرة، فقد تترك الإبل ترعى بمفردها حول بيوت البدو وهم يراقبونها، فترعى في النهار وتعود بالليل إلى منزل صاحبها من دون راعٍ.

وتعتمد سهولة رعي الأبل وصعوبته حسب الفصل والمنطقة، ونوع الإبل، فالمجاهيم مثلاً صعبة المراس في الرملة وعند دخول الوسم في نجد تنزع للذهاب إليه، أما في وقت دخول الصيف في نجد فتنزع الإبل إلى الذهاب إلى الرملة (الربع الخالي) حيث تسقط أمطار الصيف هناك عادة وتسمى البادية هذه الحالة النتع ويقولون إبل نتيع أو ناتعه. وإذا كانت الأرض واسعة وبها ربيع زادوا من ملاحظتها وقهر حيرانها حتى لا تبتعد. وإذا كان الجو بارداً وابتعدت عنهم تمكنوا من إعادتها بخلاف الأوقات الحارة. حيث تتجه إلى موارد المياه دون علم أهلها والقيظ وشدته بصفة عامة مما يتعب الرعاة أكثر من غيره في نجد.

أما في الحجاز فإنها أكثر إتعاباً للرعاة في الربيع لأنها تتبع العشب أينما كان. وفي الصيف تعتمد على الأشجار فلا تتعبهم، ويكون رعي الإبل وقت الربيع أسهل منه في الأوقات التي يقل فيها

قطيع الإبل ومعها حوار

المرعى، فالإبل عند توافر المرعى تتجمع حول بعضها، بينما تتفرق في أوقات الجفاف ويبتعد بعضها عن بعض بحثاً عن الكلأ. ولهذا قد يكون هناك أكثر من راعٍ في الصيف يتعاونون على رعي الإبل، خاصة عندما يكون عددها كثيراً. وقد يرافق الراعي زوجته أو أحد أبنائه الصغار أو أحد إخوانه، إلا أن هذا قليلاً ما يحدث خاصة عندما يرغب الراعي في المعزاب.

والمعزاب -كما جاء في لسان العرب- ضربٌ من الرعي معروف عند البادية، وهو الانتقال بالحلال (الإبل) فقط دون بيوت الشَّعر لفترة وجيزة أو طويلة، ثم الرجوع، يقال «عزبت البل» أي أبعدت في المرعى. وهناك سببان رئيسيان للمعزاب، الأول إذا كان المكان المراد المعزاب فيه لا تصل إليه الإبل وهي محملة، وبه ربيع يستحق الانتقال إليه، فإنهم يتركون بيوتهم وينتقلون بماشيتهم فقط. وأحياناً يطرحون البيوت ويتركونها في مكانها ويعزبون، ويطيلون المكث في المعزاب لمدة أسبوع أو نحوه في الغالب وقد يصل المعزاب إلى فصل كامل، ولا أحد يبقى عند البيوت المطروحة. والثاني إذا كانت المنطقة المراد المعزاب فيها ذات عشب قليل لا يكفي لمدة طويلة. ففي هذه الحالة لا يرحلون إليها بل يعزبون فيها لعدة أيام فقط، ويرجعون إلى بيوتهم. ومدة المعزاب من ليلة فأكثر، وتبقى النساء والأطفال في الخيام وتبقى معهم الخلفات (المنايح) فقط. وفي السابق كانت النساء تذهب أيضاً مع الإبل للمعزاب.

ويأخذون معهم في المعزاب قصير الأجل الأشياء الضرورية لطهي طعامهم، وإعداد قهوتهم، وقربة وسعن (سقاء) الحليب، إذا كان بالماشية حليب، وطعام يكفي لعدة أيام. وأكثرهم يعيش على الحليب أو ما يصطادونه من صيد البر. فإذا نفد الطعام أو مرض أحد منهم، أو حدث طارىء فإنهم يقطعون المعزاب ويرجعون للبيوت. وأحياناً يعزبون في جهة، ولتكن جهة الشرق مثلاً، لمدة ثلاثة أو أربعة أيام، ثم يرجعون للبيت يومين أو ثلاثة ليعزبوا مرة أخرى في مكان آخر، أو في المكان نفسه. فتأكل ماشيتهم من كامل المنطقة التي حولهم، من دون تكبد عناء الرحيل لفترات طويلة.

وعن رعي الإبل في الساحل الجنوبي يذكر الشاعر عيسى البوحي في قصيدة توضح أن هناك أكثر من راع يتعاونون لرعي الإبل، وعليهم رئيس (نصب) يأتمرون بأمره، ويوجههم إلى المرعى الجيد. حتى إذا دخل الليل بظلامه تساق الإبل إلى مباركها ثم تحلب ويفرغ الحليب

في آنية، وتوضع في ناحية المبرك ويفرش فراش بقربها، وتوضع صحاف متوسطة عند الزلاف (آنية كبيرة)، فإذا مرَّ مسكين أو عابر سبيل عرج على مبرك الإبل، فوجد الفراش وواحداً من الرعيان قريباً من الآنية ليباشر على الطارقين من الضيوف والمستطعمين. أما إن كان الطارق يرغب في نوع معيّن من الحليب، مثل حليب مصاغير أو لبن شملة أو لبن ناقة مِرَّة (الناقة التي ترعى شجر الأمرار بعد إحراقه)، أحضر الراعي له اللبن الذي يطلبه، إن كان غير قادر على حلب الناقة، أو دلّه على الناقة التي تلبي حاجته. ثم إن شاء الطارق جلس على الفراش، أو أخذ مبتغاه وذهب إلى سبيله. كما يبين الشاعر أن الرعيان يحفرون بالليل حفراً حول مبارك الإبل يختبئون فيها، حتى إذا أراد غزاة أو لصوص أخذ الإبل تواثب الرعيان نحوهم وصدوهم عن إبلهم.

وإذا كانوا عزيب وأرضهم رملية حفروا حفرة تسمى دحلوس يرقدون فيه لأنه أدفأ، وإذا كان مع الراعي إبل وفيها ناقة هدية رقد بجانبها والتصق بها لتدفئه.

ويبين الشاعر أن بعض الرعاة قد يسبقون الإبل على الماء ليحضروا لها الماء مسبقاً، حتى يروق ويبرد. يقول عيسى البوحي:

راعي النَّعم ما هو غَفِلْ عنها وغب
ولا مهمليها جربها باشعي
وبالنهار يرعَى ووفي سَهْرَتُهْ
رعيَانها تَمسْي على شُور النَّصبْ
حين يسمعْ الراعي يقبل مُسرِعي
متناصِعينْ الكُلْ يعرفْ نوبتُهْ
فِرَاش راعيها مفرُوشْ للشربْ
يبيتْ يصفَي بالزُّلافْ ويمتَعِي
ريتُهْ من بعدْ ما يَرْوى سربْ
يعجبَك منظرْهَا فرودَا والجَنَبْ
في رَداح باره كل يوم تَرتَعِي
مير الحيا دايمْ كريمه هَيْجتُهْ
وكل خَواره تشوقْ من حَلِبْ
ياسعدْ جيرانْ عليها تَربعِي
وان وردُوا بالصيفْ ما حَلَبْ
دَهم العَوادي أن تَراَها تَنْزِعِي
والفحلْ مثل الرَّعَدْ تسمع هَدْرتُهْ

وهناك بعض الاختلاف بين رعي الإبل ورعي الأغنام. بعد حلب الضأن والماعز وإرضاع صغارها في الصباح الباكر تسرح ويتبعها الراعي حاملاً معه بعض الأشياء الضرورية الخفيفة، وبعض الزاد، وإذا كان سيعود في يومه فإنه يأخذ معه قليلاً من الماء في سعن أو بدره، وتمراً أو خبزاً أو دقيقاً أو المتوافر من ذلك. أما إذا كان سيعزب بها فإنه يزيد عليها قدراً وسمناً، وكمية أكبر من

الماء إذا كان لديه حمار أو مطية. وقُبَيْل البدء في المسراح يوجِّه عادة رب الأسرة، أو الأم، الراعي لمكان معيّن. ويصفون له الطريق بالتحديد، ومكان المقيل، وطريق العودة. ويسألونه عند الرجوع بعد المغرب من أين أتى وأين سرح؟ وماذا رأى، وماذا حدث له؟. فهذه أشياء يومية لا بد منها. وبعد أن يأخذ الراعي أوامر المسراح ويعرف الاتجاه الذي يسلكه، ينطلق مع ماشيته في الاتجاه المطلوب. وعند وصوله يتركها ترعى بينما يجلس على مكان مرتفع يتيح له أن يراقب أطراف أغنامه، بل كلَّ شيء حولها. فإذا عثر على مكان به عشب كثير أخذ ماشيته إليه، ولا يتعجلها حتى تأكل ما يكفيها منه. وقبيل الظهر يبدأ الراعي في المقيل، إذا كان الوقت صيفاً. ويُظِلُّ ماشيته، ويُعد لنفسه بعض الطعام، ويرتاح إلى ما قبل العصر ثم يكمل مسيرة رعيه. ويبدأ عادة رحلة عودته في وقت يتيح له أن يصل إلى أهله في وقت المغرب.

وعند وصول الماشية يبدأ العارف بها من أهل البيت، وعادة تكون ربة المنزل والراعي معاً، في حصرها، ويتم تذكرها بألوانها وأسمائها واحدة واحدة. فإن فُقد منها شيء، كان الله في عون الراعي، حيث يعود يتتبع طريقه ليبحث عنها. وربما وجدها وعاد بها، أو وجد أشلاَء باقيةً منها، بعدما أكلها الذئب. وربما ظل يبحث عنها طوال الليل. وقد يذهب وحيداً للبحث عنها، أو قد يرافقه من يساعده في البحث عنها. وقد يبيتون في المنطقة التي فقد فيها الحيوان حتى يسمعوا صياحه إذا هاجمه ذئب أو غيره. فإن لم يكن الراعي هو رب الأسرة، فسوف يلقى جزاءه من توبيخ وملامة، بل ومن عقاب جسدي أحياناً. أما الراعي المتمرس العاقل الخبير، أو رب الأسرة، فقد لا يحتاج لمن يوجهه في الصباح. فهو يختار وجهته بنفسه، فإذا فقد حيواناً فلا أحد يلومه أو يسأله.

ويفضل أصحاب الضأن عادة أن تكون ولادتها في أواسط الخريف وبداية الوسم أو في نهاية الفصول الباردة من الشتاء حتى تتوافق ولادتها مع أمطار الربيع أو أمطار الصيف فتجد الأمهات المرعى الخصب والدفء لإدرار الحليب الكافي لتغذية صغارها (المطافيل أو الرغايث)، وما زاد من الحليب استفادوا منه لعمل اللبن والزبد والسمن والإقط (المضير)، ويتم ذلك بتوقيت هداد فحولها في الفترة المشار إليها آنفاً.

راع يقود قطيع أغنام

أما الماعز فإن ملاّكها يحرصون كل الحرص على ألا تلد في الشتاء القارس لأن صغارها لا تقاوم البرودة الشديدة مثل صغار الضأن.

وفي فصل الشتاء وتوافر الربيع يكثر الحليب، وتكثر صغار الماشية. فإذا اشتد البرد، وكانت المراعي قريبة من المنزل، جعلوا الماشية تسرح في الصباح، قبل حلبها، وقبل إرضاع صغارها، لمدة وجيزة، وعادة تبقى إلى وقت الضحى، ثم عادوا بها إلى البيت. ويسمون هذه الطريقة التهجيم أو الفاية وخاصة للغنم. والتهجيم لدى البادية معناه الترويب والتبريد. وعند عودة الماشية من الفاية يزداد الحليب في ضروعها، فيخرجون صغارها من الزريبة أو الحظيرة، أو الغّية أو من بيت الشَّعَر، ويرضعون السخال شطراً من الضرع، ويحلبون الشطر الآخر. وقد يرافق الماشية بعد الفاية عند خروجها الأول شخص غير الراعي، حتى يستعد الراعي للمسراح بعدها.

وإذا كانت المراعي جيدة فبعض البادية يسرحها مع الفجر ويعيدها في الضحى للحلب، في الوسمي والصيف وبعضهم في الربيع ولا يحدث ذلك في الشتاء إلا في حالات نادرة عند بعض القبائل.

وبعد حَلْب الماشية يسرح الراعي. ولا يحتاج في فصل الشتاء إلى ماء أو بدرة مثل فصل الصيف. وتراه خفيفاً لا يحمل شيئاً معه، فالنهار قصير، لا يحس فيه بالعطش. ولكنه يرجع مُحَمَّلاً بصغار الغنم التي تولد في النهار. وقد يُبقي أصحاب الغنم بعض الأغنام في البيت حيث يتوقعون أن تلد في ذلك اليوم. ولا يحتاج الراعي في الشتاء إلى مقيل، وقت الظهيرة، بل يظل طوال يومه يتابع المسير لقصر النهار ولا يترك الغنم ترتاح بل يبحث عن الربيع، وإذا كان الربيع قليلاً، فإن الماشية تتسابق عليه وتقطع إليه مسافة طويلة في اليوم، خلافاً لما يحدث عند توافره، حيث ترعى الماشية فيه فيستريح الراعي.

ووقت الفراغ قليل عند المرأة الراعية لكثرة مشاغلها. فإن كانت راعية فإنها تحمل معها غزل صوف تغزله وقت فراغها، أو ثوباً تخيطه، أو قربة تخرزها. أما إن كان الراعي رجلاً فإنه أحياناً يقنص حول رعيته ويبحث عن الصيد في أماكن وجوده، وكم من مرة يحضر الراعي معه صيده في المساء من الأرانب واليرابيع والضبان وغيرها. ويرعى راعي الغنم ماشياً على قدميه، حاملاً أمتعته على ظهره لأنه قد يتسلق الجبال مع أغنامه. وفي بعض القبائل، خاصة التي تسكن في المناطق السهلة، يحمل الراعي أمتعته على حمار يسمى حمار الغنم أو حمار الرعية. وفي المنطقة الشمالية يكون من بين الغنم - خاصة الضأن- أحد الخراف، وهو ما يطلق عليه المرياع قد تربى من صغره على تتبع الحمار وقيادة القطيع، إذ يُطعم طعاماً خاصاً وهو بقرب الحمار، ويخرج الطعام من الخرج الذي على ظهر الحمار كي يتعرف الخروف على محله ويتابع الحمار أينما ذهب. ويربط برقبة المرياع جرس تسمعه بقية الضأن فتتبعه. ويوجه الراعي الحمار إلى المنطقة الرعوية الجديدة، والمرياع يتبع الحمار وبقية الأغنام تتبع المرياع. وهذه الطريقة متبعة لدى بادية الشمال.

ولا فرق بين رعية الشتاء والخريف، إذ يتحول الطقس في مناطق المملكة بين فصلين فقط؛ صيف وشتاء. والفصول حسب مفهوم البادية صيف وقيظ وخريف ووسم وشتاء وربيع. ولكن في الحجاز يحسبون الوسم والشتاء والربيع على أنها الربيع، أما في الجنوب فلا يعرفون الوسم لأنه لا ينزل فيه شيء في العادة. ومع أن أهل البادية يعرفون الفصول الأربعة بالنجوم، إلا أنهم بالنسبة لرعية الماشية يقسمون السنة إلى فصلين صيف، وأهم ما يلاحظ فيه حرارة الشمس، ويكثر فيه المقيل وشرب الماء

العذب، والنزول في المناطق البراح أو المفتوحة للبراد، وشتاء، يتميز بالبرد حيث يجرى البحث عن المكان الدافىء، واتقاء أماكن هبوب الرياح، وعدم النزول ببطون الأودية لتجنب مخاطر السيول. ويكثر التنقل عند البادية من مكان إلى مكان وقت الشتاء بحثاً عن الربيع، خلافاً للصيف حيث يكون نُزُلهم قرب موارد المياه، ويسمى القطنة أو المقطان ويقال البدو قطين أو قاطنون. ويحذر أصحاب المواشي الراعي وقت الأمطار من السيول، ويأمرونه أن يرعى قريباً من البيت في اليوم المطير أو الاتجاه إلى جهة فيها ملجأ عند المطر. وفي وقت الربيع تعدو الماشية نشيطة، تستطيع الوصول إلى المراعي مهما بعدت. أما وقت المحل حيث لا شيء ترعاه الماشية فتصبح منهكة ولا تستطيع البحث عن المرعى والسير بعيداً. لذلك فهم يساعدونها بجلب العلف من الأسواق، أو من رؤوس الجبال، أو من الأشجار حيث يتسلقونها ويهزونها أو يضربونها بالعصي لتسقط أوراقها على الماشية فتأكلها. وتسمى هذه العملية الخبط.

أما عن أسلوب ممارسة الرعي وطرائقه في المناطق الجبلية فقد سلك

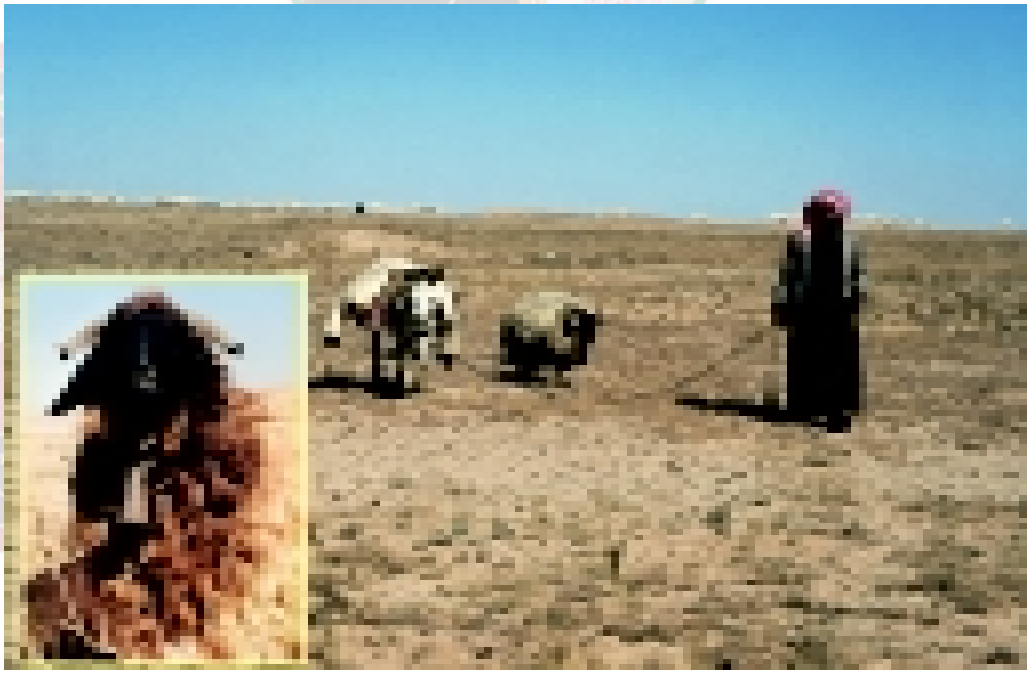

جانب من المرعى والجرس على رقبة الخروف المرياع داخل الإطار الصغير

أهلها سواء في القرى أو في البادية طرقاً عدة في رعي بهائمهم، فبعضهم يخرج ببعض المواشي إلى أماكن الرعي من شروق الشمس حتى الظهر، ثم يعود إلى منزله وقت الظهيرة والقيلولة، ويتناول وجبة الغداء، بعدها يخرج بالماشية مرة ثانية، إذا كان قد عاد بها معه، والغالب أن يتركها مع راع آخر يحل محله بقية النهار، إذا اضطر إلى الذهاب إلى المنزل لبعض الوقت ثم العودة إلى أماكن الرعي مرة أخرى. وهناك بعض أفراد الأسر أو الحي الذين يخلطون جميع المواشي، ثم يتناوبون على رعيها، وقد يوزعون الرعاة إلى عدة فرق، لترعى كل فرقة في اليوم المخصص لها. ومن الناس من يستأجر رعاة آخرين لرعي مواشيهم. وبعض الأُسَر قديماً كانت تطلق سراح بهائمها، خاصة الإبل، فتتركها لعدة أشهر تهيم على وجهها، فترعى من حشائش الجبال، وترد على موارد المياه فتشرب منها، وقد يتابعها بعض أفراد الأسرة من وقت لآخر أيضاً، وتسمى البهائم في هذه الطريقة الهَمَلْ ومفردها هَامِل.

أما في المناطق الجنوبية، كالربع الخالي، فهم يهملون الإبل ثم يلاحظونها بين الحين والآخر، خاصة اللقحات والمعاشير أما الخلفات فترعى قريباً منهم.

وهناك من يقتني بعض الحيوانات في المنزل، كالأبقار والحمير، وأحياناً الإبل وقليلاً من الضأن والماعز، فلا يتركها تخرج للرعي بل يحضر بعض أفراد الأسرة ما تحتاج إليه من أعشاب وحشائش وغيرها، ويتم تربيتها تحت رعاية أصحاب المنزل. هذا الأسلوب في الرعي يأخذ به أيضاً سكان المدن في نَجْد والحجاز، فيجمعون العشب للماشية بالمجدل، وهو شبكة لها أربعة حبال تسمى المرار (وقد تكون لها ستة حبال أو أقل أو أكثر) لتساعد على ربط الحشيش (العشب). وجمع المرعى (أي العشب) عقب سقوط أمطار الوسم فيجمعون ما أمكنهم جمعه وتخزينه جافاً ثم يعطونه للماشية عند ذهاب الربيع. وكانوا في نجد إذا سقط المطر حميت الرياض القريبة من القرى حتى يكبر نبتها ثم يخرج الناس جميعهم رجالاً ونساء للحش ويسمون من يقوم بهذه المهمة الحشاشين أو الحشاشة.

ونظراً لاختلاف رعي الإبل عن رعي الغنم، فإن البدو يصنفون إلى صنفين؛ أهل الإبل وأهل الغنم.

أهل الإبل وهم الممعنون في البوادي، الذين يبيتون مع الإبل في المرعى (يعزبون)

ولا يأوون إلى بيوتهم ولا يرعون غير الإبل. والمبيت ليس شرطاً، كما أنه ليس شرطاً ألاَّ يكون من البادية الاَّ رعاة الإبل، فهناك بادية رعاة أغنام فقط، ولا تعرف الجزيرة العربية رعاة أبقار بالمعنى الحرفي للكلمة ولكن كانت أبقار العرب تجمع أوقات الربيع ويذهب بها أحدهم. كما أن أهل الأودية الكبيرة مثل وادي بيشة وأودية تهامة يهملونها في الأودية حتى تلد ثم يحضرونها وقت الحاجة. وراعي الإبل هو الأعرابي الأصيل، ابن البادية، وهو كما قال الراجز: جوّابُ بيداءٍ، لا يأكل البقل والخضر:

جَوّابُ بَيداءَ بها عَزوفُ
لا يأكل البقلَ ولا يَريفُ
ولا يُرَى في بيته القَليفُ

ويُعد هؤلاء الرعاة من أبعد الرعاة عن القرى والحضر، لا يذهبون إليها ولا يتّصلون بها إلا عند الحاجة. ويعيشون في وضع خاص بهم، بعيداً عن القيود والتكاليف، والتنويع في المأكل والمشرب.

وأهل الغنم لا يستطيعون التوغل في البادية أو التعمق بعيداً فيها، ولا يمكنهم الابتعاد عن الماء كثيراً، ولا تستطيع الغنم الصبر على العطش. ولهذا يظلّون على اتصال بالحضر والحضارة، ويمثلون مرحلة وسطى بين الأعراب والحضريين.

وكان المجتمع العربي الأول مجتمعاً قَبَليا، لكل قبيلة فيه عَالَمها الخاص بها، فلا ترضى لأي راع من رعاتها أن ينسلخ منها، ويعمل بالأجر لدى أي قبيلة أخرى. وتُذكر هنا قصة عسكر السميري عندما كبر في السن، واحتاج إلى ابنه طواري الذي كان يعمل راعياً عند إحدى القبائل، فأرسل له قصيدة يدعوه للعودة، يقول فيها:

يوم اشتكي يابوكْ وين انتَ عنِّي
يذكر لنا عندكْ حقوقْ ومَوَاجيبْ

فرد ابنه عليه بأبيات منها:

يابويْ قولَكْ وسِطْ جُوفِي طَعَنِّي
إن ساعفَ المعبودْ تطلبْ وانَا أجيبْ
يابويْ أنا دروبْ الرَّدَى ما يْجِنِّي
سَرْحي مع الاجنابْ نَبَّت بِي الشِّيبْ
ولى مِنّ شينات الليالي حَدَنِّي
أصبرْ علّيّ وحرة عفون المعازيبْ

ويُشكِّل مجتمع الرعاة رابطة لا يتميز فيها المالك عن المستأجَر، حيث يوجد ملاَّكٌ رعاة ومستأجَرون رعاة. إلا أن فئة من السادة والأغنياء يتنزّهون عن الرعي، ويترفّعون على الرعاة. بل إن بعضهم ينظر لراعي الغنم خاصة، بشيء من التحقير.

ويكتسب الرعاة من طول ممارستهم للرعي وتنقلهم بين المراعي خبرة بالمرعى

ومعرفة جيدة بخواصه وطبيعة أرضه وكل ما يحيط به. ويتضح ذلك في نصيحة العسمي شيخ قبيلة حرب لولده، وكان الشيخ راعي إبل يرعى بها في كل أرض، فعَرف أن بعض الديار كثيرة الوباء، ويقل فيها النزل من البادية، ويزداد فيها العشب لقلة الناس، ولكنه قد يضطر للمنزال بها، حتى عرَّفته التجارب الكثير من خواص الديار. فنصح ولده بالابتعاد عن بعضها وعدم المنزال فيها، محدداً منطقة الوباء في ديار حَرْب.

فالبادية ترى أن بعض المناطق وإن جادت برعي وفير لا تفيد حلالهم، وكثيراً ما نلاحظ أن الإبل تحاول الابتعاد عن مثل هذه الأرض وتسميها البادية أرض وخيمة، بينما بعض المناطق وإن قل رعيها يصح حلالهم بالرعي فيها وتسميها البادية أرض مِربّة ولا يوجد تعليل لهذه الظاهرة سوى أنهم يعرفونها بحكم خبرتهم الطويلة، حيث يقول الشيخ العسمي لولده:

أنصحكْ يا وِلدي عن ما يرفعْ الشَّرا
وما طمنت حربا وخشُمْ زيادْ
تقصف شبابَ العُمُرْ قُدّام يومُهْ
وتحطْ في الوَجْه النويِّر سَوَادْ

الشراء: أرض تقع شرق رابغ؛ حربا وزياد: جبلان في المنطقة.

ويعتمد تحديد الأفراد الذين يكلّفون بالرعي ويقومون بواجبه على تركيب الأُسْرَة. فلكل عائلة ظروفها الخاصة التي تختلف عن ظروف الأُسَر الأخرى، حسب عدد أفرادها من الذكور والإناث. وأكثر مَن يرعى الأغنام عادة البنات، إذا كان لدى الأسرة بنات، وإلا فالأم، وأحياناً الأولاد. أما إذا كانت في العائلة بنت شابَّة فإن رعي الأغنام من واجبها، لأنها في هذه السن متعودة على المشي الطويل، وتستطيع ملاحقة الأغنام من مكان إلى آخر، وتدريب رعيِّتها أو أغنامِها بالصوتِ والنداء حيث يكون لبعض الشياه القائدة اسم تعرف به، مثل الذريّه وهي التي في أذنها لون رصاصي، وغُريَّة، وهي التي في جبهتها بياض؛ والحديه، التي في جبينها حمرة؛ وبركة، من التبرك. ونزعة القيادة في الغنم أيضاً. فمنها ما تكون بارزة دوماً في مقدمة الرعية بمثابة القائد، ومنها ما يكون دائماً في المؤخرة وتحتاج إلى من يستلحقها وتسمى الجرور، ومنها ما تكون دائماً في طرف الرعية تندّ عنها وتحتاج إلى من يكفها ويعيدها، وهذه النادة دائماً عرضة لافتراس الذئب وفيها ورد المثل: لا يأكل الذئب إلا الشاة أو (الغنم) القاصية، أو القاصية من الغنم. كما أن هناك نداء

لكل تحرك أو غرض، فـمثلاً هناك نداء لورود الماء، ويسمى التربسه والفعل منه يربس. وعند الخبط على الأشجار ينادى لها بالشُلُشْ، وهو صوت مماثل لصوت سقـوط ثمرة أشجـار المر. وهناك نـداء للمقيل، وآخر للرجوع وآخر لبدء المسير في الصباح، أو بعد المقيل، وآخر للاختباء عن المطر وهكذا. وأغلب هذه النداءات هو كلمة ايَّحْ، ايَّحْ، عند المسير في الصباح وايَّحْ يوحهْ، تَحّ وحْ، عند العودة، ويقال: الراعـي تَحّ أو تـاحا لغـنمه إذا دعـاها للمسير. وللضأن نداء خـاص وهو «أر» يرددها الراعي عنـدما يقودها للمرعى، وعندما يريد لها الراعي أن تبقى في المرعى يقول لها أَرْيح، تَحْ وِيْحْ.

وتتعرّف الأغنام على هذه النداءات والأسماء بسبب ملازمة الراعية لها يومياً من الصباح إلى المغرب، فتحدث الألفة والمعرفة. ولـو تغيّر الراعي لسـبب من الأسباب فإن الراعي الجديد يجد صعوبة في رعي هـذه الماشية لجـهله بطـباعها وأسمائها وربمـا نفرت منه. وقد يؤدي هذا إلى رغـبة الأب في عدم الـتفريط بالبنت عندما تُخطب، لذلك قد تحبس ولا تُزوّج لسنوات حتى يتوافر راعٍ غيرها. وفي بعض الحالات قد يُزوِّجُها ويشترط بقاءها مع رعيتها لفترة معينة من الزمن.

ومن فترة لأخرى يرعى رب الأسرة نفسه أو أحد أبنـائه الأغنام مؤقتا حتى يقضي الراعي أو الراعية بعض الشؤون

إحدى الفتيات ترعى الأغنام

الخاصة كغسل الملابس أو الخلود للراحة. ويفرح الراعي بهذا اليوم ويعتبره إجازة له. وفي يوم الراحة يطلق على الراعي صفة (متنسم) أو مستريح. وتُسر الأم الراعية أكثر من غيرها، إذ يحدث مرة في الأسبوع. أما البنت فنادراً ما ترتاح إلا يوماً في الشهر أو مرة كل أسبوعين. ومن المعروف عند البادية أن الغنم لا تترك من غير أن تذهب للمرعى، حتى عند حدوث وفاة في الأسرة.

ويتوزع اختصاص كل فرد في الأُسْرة بما يلزم للمواشي، فقد يكون رب الأسرة مسؤولاً عن سقياها من الآبار، أو إحضار الماء إليها في البيت. وإذا كان الماء غديراً أو ما يشبهه، ورده الراعي بأغنامه. كذلك يجلب رب الأسرة الأعلاف، وأحياناً يساعده الأولاد الصغار في تجميعها من المنطقة المحيطة بهم، وأكثر ما يكون هذا من أعمال أهل القرى في نجد والحجاز وقت الربيع وليس في البادية. وهم يحضرون هذه الأعلاف للإبل خاصة، أو للأغنام المريضة أو المكسورة في غير وقت الربيع. كذلك يتولى رب الأسرة بيع ما يريدون بيعه من سمن وأغنام في الأسواق.

ويرعى الصبيان الصغار أو البنات الصغيرات في الأُسْرة البهم، وهي صغار الغنم. وأحياناً يرعون الإبل أيضاً لأنها أسهل من الغنم، ولا يُخْشى عليها من الذئب. ويبدأ الفتيان في ممارسة رعي الإبل من عمر ١٥ سنة فما فوق لأن الإبل تحتاج إلى راع فتيٍّ قوي، وأول ما يبدأ العمل يكون ملحاقاً للراعي أي مساعداً له لفترة من الزمن حتى إذا رأى أنه يتحمل مهمة رعي الإبل باشرها.

أما كبار السن فيتخصصون برعي الإبل ربما لتعلقهم بها، أو لعدم مقدرتهم على الأعمال الشاقة الأخرى. وكثير منهم يعرف أثر إبله واحداً واحداً. وينشأ بينه وبينها تعاملٌ خاصٌ ومودة شديدةٌ. ويحكي أحدهم يقول «كان لديّ بعير عاش معي سنوات طويلة، فأخذته إلى السوق وبعته. فأخذه صاحبه الجديد وقاده لجهة أخرى. قال صاحبه القديم: إنه كان ينظر إليّ، رادًّا رقبته نحوي، وهو يسير خلف صاحبه الجديد. فما كان مني إلا أن دمعت عيناي لذلك المشهد». وهناك حالات كثيرة تعود فيها الإبل إلى مساكن أهلها الأُوَل بعد بيعها. وكذلك الغنم عندما يرتحل أصحابها من ديارهم، تعود إلى ديارها السابقة، خاصة إذا كان المكان قريباً.

وتتولى ربة البيت غالباً حلب الشياه، أما النوق فيحلبها الرجال. كما

تعدّ الأم اللبن والسمن وترضع صغار الغنم أو السخال أو البهم، ويسمى تهديد، تفعل ذلك في المساء بعد عودة الغنم من المرعى، ثم في الصباح، قبل أن تسرح. وقد يكون على الأم كذلك إحضار الحطب لموقد النساء، أما مكان الرجال فيحضر الحطب له الأولاد أو الرجال على الأغلب. والحطب الذي تحضره المرأة صغير لضعفها من جهة، وليدخل تحت القدر من غير تكسير من جهة أخرى، أما حطب الرجال فعادة يكون كبيراً ويستخدم وقوداً لإعداد القهوة.

وتساعد البنات أمهاتهن في كل هذه المهام. وأحياناً ليس في البيت سوى امرأة واحدة، فهي تسرح بالغنم، وتؤدي كل هذه المهام حتى لو كانت حاملاً أو مرضِعاً. ولا ترتاح بعد الولادة سوى بضعة أيام فقط، تبدأ هذه الإجازة قبل الولادة بقليل. ولعدم معرفة نساء البادية بموعد الولادة فكثيرٌ منهن يأتيهن المخاض وهن في المرعى، وهو أمر معتاد لديهن.

والمرأة في البادية مشغولة طوال وقتها في أعمال كثيرة. فهي بجانب قيامها بالأعمال السابقة، تتولى دباغة الجلود، وعمل القرب، وحياكة الصوف، وصناعة بيت الشَّعَر، وعمل الإقط، ونحو ذلك.

ولا تكاد تنام من الليل إلا أقله، وتنهض في وقت مبكر وتخض أو تمخض اللبن لأن برودة الجو تساعد على تكوّن الزبدة، وقد تخضه بعد المغرب للسبب نفسه، فضلاً عن أن اللبن يكون عادة متوافراً عند الفجر وعند الغروب.

ليس هناك وسائل إضاءة في البادية، لكن ضوء القمر يساعدهم كثيراً، وكذلك ضوء النجوم. ولا يكاد يصدّق ذلك إلا مَنْ مارس هذه المهام فعلاً. فمن قولهم عن أهل البادية إنهم يفددون الشوكة على ضوء القمر، أي يخرجون الشوكة من القدم. وبعض أبناء البادية حتى الآن يقرأون على ضوء القمر عند الحاجة الملحة.

والراعي الماهر هو الذي يتحكّم في رعيته ويؤلفها حوله ويدربها بصوته، ويوجهها يمنة ويسرة دون اللجوء لاستخدام العصا والحجارة. كما أنه يذهب بها كل يوم إلى مكان جديد، ولا يتبع بها الرعيان الآخرين حتى لو كانت المنطقة مُرْبِعة، لأن الرعية الأولى تأكل ما طاب وتترك الرديء. ولا بأس أن يرجع للمكان نفسه بعد عدة أيام، ولكن لا يكون طريقه واحداً يومياً. كذلك يتجنب الراعي الفطن الرعيان الآخرين حتى لا تختلط الرعية مع الرعايا الأخرى

ويزعج بعضها بعضاً، وتبدأ بالثغاء، أو التناطح لأنها غريبة غير متآلفة.

والراعي الحاذق بين رعيته دائماً مبعداً لها عن الخطر. وفي الصباح يحرص على أن يمشي أمامها خوفاً من أن يكون في المرعى ذئاب، والعكس عند العودة، إذ يحرص الراعي على ألا يتخلف من الماشية شيء، لأن الذئب عادة يتبع الرعيان قرب المساء، ويأكل الشاردة عن البيت والبعيدة عن الراعي. ويسرح الراعي مبكراً قبل طلوع الشمس ولا يعود إلا بعد الغروب. وقد وَضَعَت الأعلاف الجاهزة المتوافرة حالياً حدّاً لهذه الظاهرة، فلا يحتاج الراعي في الزمن الحاضر إلى طول البحث عن المرعى. أما في غير فصل الربيع فيحتاج إلى جهد يبذل في البحث عن المرعى المناسب.

ومن صفات الراعي الجيد أيضاً أنه في وقت الظهيرة يُقيِّل ماشيته، خاصة الماعز من دون الضأن والإبل، لأن شدة الحرارة تؤدي إلى إجهاضها. ولا يخاف الراعي الجيّد من الذئاب، ويستطيع حماية ماشيته، ويحول بينها وبين الذئب في أي وقت. وأكثر ما يحمل الراعي معه المخبط أو العصا، والقليل من الرعيان الرجال من يحمل البندقية. أما راعي الإبل فيحتاج إلى عصا جيدة، أو مقراط له رأس، حتى يستطيع أن يوجه به بعض الإبل، وكذلك يحتاجها في الدفاع عن نفسه، عند هياج الجمال عليه. ويسمى الراعي الذي تتوافر فيه هذه الصفات الطيبة راعي مصلاح. أومحسان وجاء في المثل «الراعي النصوح أول من يسرح وآخر من يروح».

أما الراعي غير الماهر فهو الذي يتبع الرعيان الآخرين ويختلط معهم. وقد يمنعه أهله أحياناً من الاتجاه مع الرعيان الآخرين، فتجده ينام عن رعيته ويضيِّعُها، فيرجع بعضها للبيت، ويذهب بعضها من غير رجعة، والراعي المهمل هو الذي يجلس في الظل الكبير ويترك ماشيته في الشمس، ويسرح في الصباح متأخراً عن غيره، ويرجع قبل المساء، وأحياناً يرجع عند الظهر. ولشدة إهماله ونومه تكاد ماشيته لا تعرف صوته، ولا تطيعه إذا أرادها أن تعود، أو تغير اتجاهها.

وشر الرعاة، خاصة رعاة الأغنام، مَن يسوقها بالعصا أو بالحجارة، أما الراعي المتمكّن أو الراعية المتمكّنة، فهي توجه رعيتها بصوتها واتجاهها إلى حيث تريد. وأفضل الرعاة هو من يمشي أمام أغنامه وإذا وجد مرعى وفيراً صاح لها بصوته فابطأت في مشيها ورعت بتؤدة. وإذا اختلطت الأغنام (الرعايا) فإن

الراعي، المتعودة عليه أغنامه، يصوّت لها ويخرج أمامها في أي اتجاه، فتتبعه أغنامه، وينادي المتخلف منها واحدة واحدة. ويحدث هذا إذا كانت الرعية قليلة العدد؛ أما إذا كانت كثيرة فإن الرعاة يحاولون الابتعاد عن بعضهم حيث يرعى كل منهم في ناحية من المرعى. أما الراعي غير المتمكّن فهو يلاحق أغنامه واحدة واحدة ويخرجها، ويلاقي في ذلك صعوبة كبيرة، لذلك يحرص على عدم اختلاط رعيته مع رعايا الآخرين.

وغالباً ما يستعين الرعاة، خصوصاً رعاة الغنم، بالكلاب المدربة وتعرف البادية نوعاً واحداً من الكلاب، هو كلب الحراسة، وليس الكلب السلوقي أو كلب الصيد. وأهل البادية يدربون كلب الحراسة على ما يحتاجون إليه. فتجده مقيماً عند البيت ليلا ونهاراً يحرسه من أي غريب، سواء أكان إنساناً أم حيواناً. وبعض الكلاب يُدرب ليسرح مع الراعي، يطعمه ويسقيه، وتراه ملازماً للماشية طول اليوم. وتشتد حراسة الكلب للماشية ليلاً، بينما ينام في النهار. وإذا عدا الكلب على بعض السباع في الليل وحاول منعه من الدخول للماشية فإنه يفر هارباً، فيأخذ الكلب في ملاحقته حتى يبتعد عن المنزل عندئذ يرجع عليه السبع فيفترسه، خاصة إذا كان الكلب ضعيفاً أو صغيراً.

وفي بعض الكلاب عيوب. فمنها النوّام، ومنها العقور، الذي يعض الناس، (وهذا النوع من الكلاب يربطه أهله في النهار ويطلقونه في الليل)، ومنها الأطرشي (الأطرش) ومنها الكسول وقد يقطع أصحابه قطعة من أذنه ويطعمونه إياها، حيث يعتقدون أن سلوكه يتغير ويصبح شجاعاً. ومنها الذي يساعد الذئب على الماشية حتى

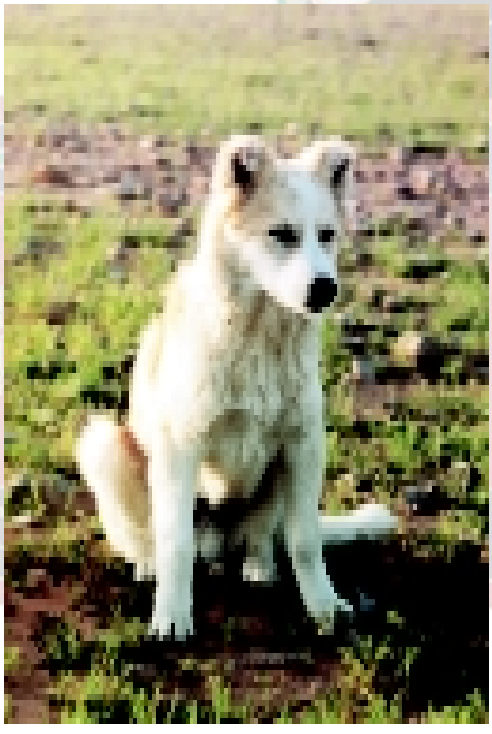

كلب الراعي – الطيارات (حفر الباطن)

يأكل معه، ومنها السروق الذي إذا رأى البيت خالياً دخله وأكل أي شيء مما تأكله الكلاب. ومنها الدَّنَعْ الذي يلعق الأواني. وإذا كان بين الكلاب أو لدى الجيران كلب سروق أو دنع فإنه يكون معروفاً للناس فيأخذون حذرهم منه، ويرفعون أواني شربهم وأكلهم بعيداً عنه.

وبعض الكلاب يعتمد عليها أصحابها في الليل، حيث يستطيع صاحبها أن يترك المنزل ليحضر وليمة أو يزور أصدقاءه.

والكلاب شديدة الذكاء، تعرف العَدُوَّ من الصديق. والكلب يعرف جميع الجيران ولا ينبح عليهم. وينبح عند قدوم الضيفَ، ولا ينبح عليه عند الذهاب. ويعرف جميع أفراد الأسرة حتى لو غاب أحدهم سنة كاملة، فإن الكلب يعرفه ولا يؤذيه، ولا ينبح عليه. والمثل الشعبي يقول «الكلب إلى عرف أهله ما نبح».

ومما يحكى في ذلك أن رجلاً مر على جاره القديم، فوسوس الشيطان له أن يغزوه، لأنه يعرف مكانه وطريقه فأتاه ليلاً، وكان خائفاً من الكلب. وفعلا عدا عليه الكلب عند قدومه. ولكنه عرف عندما وصل إليه أنه جارهم القديم فتركه، وأخذ يمشي معه، ويهز ذيله مرحباً به. فقال الرجل في نفسه: هذا الكلب لم ينس الجيرة ولم ينكرني، وأنا نسيتها، فتحسَّف (ندم) وأتاهم ضيفاً بعد أن كان عدواً غازياً.

أما عن الخوف من الكلب وإكرامه وعدم تعرض الغرباء له بسبب قوة أهله وهيبتهم فهذا معروف في الأمثال حيث قيل «كرامة الكلب من كرامة أهله»، فقد يعض الكلب غريباً ولا يستطيع هذا الغريب أن يضر الكلب خوفاً أو هيبة من سطوة أصحابه.

وأهل البادية إذا عرفوا كلباً جيداً في الحراسة والطباع أخذوا من جرائه وربوها. وهم لا يهتمون بسلالاتها كما يفعلون مع الإبل، ولكن يحكمون على الحاضر بغض النظر عن السلالات السابقة.

وتوجد عداوة بين الكلاب غير المملوكة لشخص واحد أو لجيران متقاربين. وقد تقتل الكلاب أحياناً الكلب الغريب إن لم يتمكن من الفرار، أو ينقذه الناس منها.

وعندما يرى الراعي ماشيته راتعة مرتاحة لا تسبب له أي إزعاج أو هم يشعر بالارتياح ويبدأ الغناء. ولا يلتزم الراعي بغناء أو لحن معيّن بل ينشد ما يطربه. ومع كل راع ألعاب (ألحان

وأغاني) ليست مع رفيقه. أما عند ورود المياه، خاصة الآبار، فغالباً ما تكون ألعابهم وأهازيجهم معروفة، وهي عادة قصيرة تشبه السجع حتى لا تطول القافية، فيتعب المغني من لحنها. ومن نماذج إنشاد الرعاة وغنائهم:

حيّري ياغنمْ واقرضي كلْ عودْ
حيرتكْ الحويّا وبنتْ الشرُودْ

ولأن البهم صعبة الطباع ومتعبة في الرعية، وأشبه ما تكون بالمراهقين من الأولاد، يغني راعي البهم قائلاً لها:

يابُهُمْ ياحلّيسْ
يارعِيَّة بلّيسْ
الغنمْ قيلّتْ
وانتَ تدرُسْ دريسْ

ومن غنائهم أو بالأحرى حدائهم للإبل على الآبار:

اشربي لا تامزِينهْ
من بُويْرٍ حافرِينَهْ

وقولهم:

يالحُمُر طالَ أوقافَك
ليتَ الرّدَى ما شَافَكْ
ولا شافَ زَيْنَ أوصافَكْ

وقولهم:

تَبَاشْري بالرّيا
من قَاعَتْ المَطْوِيّا
ما دامَ راسي حَيِّا

وقولهم:

تهايقت للمايحْ
تحسبْ ولدها طَايِحْ
في البِيرْ أبو سَطايح

وقولهم:

ناديتْ يالعَوَانِي
ناديتْ ولا احدٍ جَانِي
غيرْ الصبي الغَيْدَاني
لَقَطْ عَصَاه وجَانِي

وقولهم عن سقيا الإبل وعند رفع الماء من القليب وصبه في الحوض:

ياحلالي يابعدي
لا تحزَّم بالردي
الردي ولد الردي
ينقطع بك وتْغَدي

وقولهم:

شايبٍ ومهوّل
وان رقى ما حَوَّلي

وقولهم:

ان صَرْصَرْ المحَالي
وأنَا وحيدْ لِحَالي

ويردد هذا القول أكثر من مرة وهكذا.

ويختلف سقي الإبل حسب برودة الجو، والمعتاد أن يكون ورودها في النهار، وأفضله في الصباح إلى الظهر، وعند الضرورة في آخر النهار حتى الليل. فإذا ارتوت بركت حول موارد

المياه، ثم يعاود راعيها سقيها مرة ثانية وهذا يسمى العل. وبعده تبدأ بالاتجاه إلى المنطقة التي يرغب راعيها في التوجه إليها. وقد تظل في المرعى أكثر من خمسة أيام، ثم تعود إلى موارد المياه لسقيها. وكل ليلة تقضيها في المرعى لها اسم خاص، فليلة مصدارها عن المياه تسمى ليلة الصدر، ثم ليلة الغب، وليلة الربع، وليلة الخمس. وكلما كان الموسم بارداً طال غيابها في المرعى لعدم حاجتها للماء. وقد تصل مدة الجزو عن الماء إلى ستة أشهر أو أكثر. وحين سقي الإبل والغنم من موارد المياه فالذي يصل منها أولاً يشرب أولاً إذا كان المشرب واحداً، فإذا كان هناك أكثر من حوض فالكل يشرب دون ترتيب.

وموارد المياه في البادية متعددة التسميات فقد تكون آباراً، أو قلباناً (مفردها قليب) أو ركايا (مفردها ركية) أو قد تكون خُبَرا (مفردها خَبْراء) أو هجالاً (مفردها هجله). أو تكون غدراناً (مفردها غدير) وهي المياه المتبقية بعد المطر في المنخفضات أو نهايات الأودية، أو تكون ثميلة وهي حفرة يحفرها شخص واحد أو أكثر ويتركونها حتى تصفو مياهها ثم يأخذون حاجتهم منها

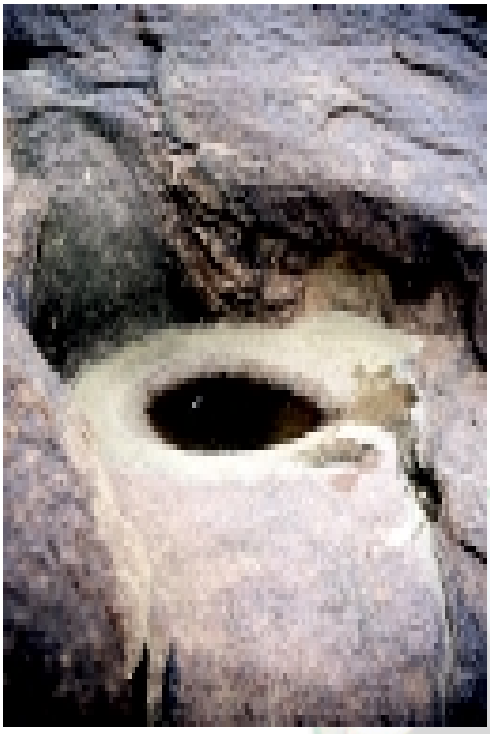

نقرة صخرية صغيرة (قرو) جبال الجثوم

وهي عادة حفرة مؤقتة. جاء في اللسان أن الثميل بقية ماء تبقى بعد نضوب المياه. أو قد يكون مورد الماء جارياً في الوديان ويسمى غيل وهذا عادة ما ترده الأغنام والماعز. وقد يكون المورد رساً أو مشاشاً وهو النبع الصغير الذي يجود بالمياه وقت الأمطار. أو قد يكون المورد قرواً وهو حفرة قد تكون صغيرة أو كبيرة حدثت في عصور غابرة عند تكوّن الجبال أو كما يعتقد البادية أنها تكوّنت من ارتطام الشهب بها أو أنها حفرت باليد في عصور غابرة واختفت

الشواهد على أنها من عمل الإنسان. وقد يكون قلته (صفاة) تتجمع فيها مياه الأمطار. وفي العادة تكون في رؤوس الجبال أو المغارات، وتظل فيها المياه راكدة فترة طويلة لأن الشمس لا تصلها. وفي المنطقة الوسطى يوجد أيضاً ما يسمى خريقة وهي فتحة في وسط صفاة لا يزيد قطرها عن المتر عميقة ويشاهد الماء في قاعها. وفي العادة لا تحتاج جوانبها إلى بناء (طيّ) بالحجر أو الخشب، ومن الأساطير لدى بعض البادية أن جن نبي الله سليمان قد حفروا هذه الخرائق.

وأكثر ما تحدث المشكلات بين الرعيان في البادية على موارد المياه، كأن يكون الماء قليلاً، فيتسابقون إليه، أو يرد أحدهم بماشيته وليس معه عدة كالدلو أو الصحن أو الحوض، ويلاقي غيره على الماء ويرفض أن يعيره آنيته. وقد تقع الخصومات بين الرعيان عند المقيل، حين يتقابل راعيان عند شجرة كبيرة لا يوجد غيرها، أو ظل جبل لا يوجد غيره في تلك المنطقة فيحاول كل منهم أن يقي ماشيته من أشعة الشمس في هذا الظل.

كذلك يتخاصم الرعيان إذا أصاب ماشية أحدهم مرض معدٍ ولم يبتعد بها عن الرعيان الآخرين، أو أتى بها للمقيل في المكان العام. فأهل البادية يتجنبون النزول في مكان تحلُ به ماشية مريضة، كما يتجنبون الورود معها إلى مورد واحد.

ومن الحوادث التي تقع للرعيان سقوطهم في الآبار لصغر سنهم، أو تدافع الماشية عليهم، أو محاولة بعضهم النزول في الماء لإخراج بعض الماشية التي سقطت فيه وهم يجهلون السباحة، مما يؤدي إلى غرقهم. أو سقوطهم من الجبال الوعرة عند مرورهم بها، أو عند محاولة بعضهم إنزال ماشيته من موقع في الجبل انحبست فيه ولم تستطع الخروج أو النزول منه. كذلك يتعرضون للمخاطر مع فحول الإبل وقت هيجانها، وفحل الإبل وقت هيجانه يهاجم كل من يقترب منه ويحاول دهسه أو تمزيقه بفمه وأنيابه القوية، خاصة إذا كان مع النياق.

وقد يتعرض الرعيان أحياناً للجوع والعطش والمرض، لا سيما الذين يرعون مواشيهم بعيداً عن الحي أو الديار. وكان الرعيان في السابق يتعرضون لمهاجمة اللصوص وقطّاع الطرق الذين يُلحقون بهم الأذى ويسرقون من مواشيهم ما يستطيعون الهرب به. وقد يتعرض الرعاة

ومواشيهم للحيوانات المفترسة الجائعة التي تداهمهم على حين غِرَّة، لذا يضرمون النار ليلاً إذا حَلُّوا بمناطق خطرة كما يحملون وسائل دفاعهم الخاصة كالعِصيِّ والسكاكين والبنادق. كذلك قد يتعرض الرعاة لمخاطر السيول التي تأتي من بعيد فتفاجئُهم وهم يرعون ماشيتهم في بطون الأودية، وتتسبب في غرق بعض الماشية، وأحياناً إلى الحيلولة بينهم وبين العودة إلى منازلهم.

ومن المشكلات التي قد تواجه الراعي الضياع في مهامه الصحراء، فيضل طريق العودة، خصوصاً إذا كان قليل الخبرة بالأرض التي يرعى فيها أو كانت الرياح قوية وكثر العج، وتمادى في الابتعاد بالماشية أو طواه الليل قبل الرجوع، فيحل عليه الظلام وتتشابه عليه الطرق. وقد يتعرض الراعي كذلك لمرض مفاجىء أو للدغة ثعبان أو عقرب وهو وحيد في الصحراء.

وفي جميع هذه الحالات، قد يأتي إليه من يساعده وينقذه، وقد يتأخر في العودة حتى يزول العارض الطارىء الذي حلَّ به، وفي بعض الحالات قد يكون ذلك سبباً في وفاته.

وقد يتلقى الرعاة خسائر كبيرة عندما تفتك الأوبئة والأمراض المعدية ببعض قطعانهم، حين تصاب الأغنام والإبل بداء الجَرَب أو مرض الهيام المعروف بحُمَّى الإبل. وثَمَّ مشكلة أخرى كبيرة وهي حلول القحط المؤدي إلى المجاعة وهلاك قطعان المواشي نتيجة ندرة الأمطار أو انقطاعها وجفاف المراعي، وتلك مشكلة بيئية مهمة تواجه الرعاة أينما كانوا.

تدهور المراعي

أدى الإخلال بتقاليد الرعي التي كان متعارفاً عليها في السابق، والرعي المبكر والجائر، وقطع الأشجار، والتوسع الزراعي، إلى تدمير الغطاء النباتي الطبيعي، وإلى ازدياد تدهور المراعي الطبيعية عاماً بعد عام.

وتدهور المراعي، الذي زادت حدته خلال العقود الأخيرة من القرن العشرين، ظاهرة من أخطر المشكلات البيئية التي صنعها الإنسان، نتيجة لتعامله غير الرشيد مع بيئته، خاصة في مناطق المراعي الطبيعية الجافة، التي تتسم أنظمتها البيئية بالهشاشة والحساسية. ذلك أن أي ضغط استغلالي لها يفوق مواردها الطبيعية يخل بتوازنها الطبيعي، الذي لا يمكن أن يعود إلا بضبط استغلال هذه الأنظمة البيئية عند حدود طاقاتها الإنتاجية.

ومشكلة تدهور المراعي مشكلة شديدة التعقيد. وقد نجمت عن التفاعل المتبادل بين الأنظمة البيئية لهذه المراعي الجافة، وشبه الجافة، واستغلال الإنسان لها استغلالاً جائراً في محاولاته لكسب قوته والحفاظ على حياته. ويعزو معظم الباحثين أسباب تدهور المراعي إلى جملة عوامل، بعضها طبيعية والأخرى بشرية. وتتضافر هذه العوامل في صنع ظاهرة تدهور المراعي في المناطق الجافة وشبه الجافة. ويميل بعض الباحثين إلى اعتبار أن العوامل الطبيعية، خاصة الظروف المناخية غير المواتية، هي السبب الرئيسي في نشوء ظاهرة تدهور المراعي، أما العوامل البشرية فهي أحد العوامل التي تساند ذلك وتدعمه، بينما يرى آخرون أن ممارسات الإنسان هي السبب الأول أو الرئيسي في تدهور المراعي، أما الظروف المناخية الجافة فليست أكثر من عامل مساعد.

ولا شك أن المناخ الجاف من أكثر العوامل الطبيعية أثراً في تدهور المراعي، حيث تقل كمية الأمطار، التي تفقد الكثير من قيمتها الفعلية نتيجة لارتفاع معدلات درجات الحرارة، وبالتالي معدلات البخر التي تفوق معدلات سقوطها في هذه المناطق بعدة مرات. كما تتذبذب كميتها من سنة إلى أخرى، حيث يتراوح الانحراف عن المعدل السنوي بين ٣٠ و٩٠٪ وأحياناً أكثر من ذلك. ويؤدي

تدهور الغطاء النباتي

هذا التذبذب في كمية الأمطار إلى عدم استقرار النظم البيئية، وزيادة حساسية الغطاء النباتي لأي ضغط، ولو محدوداً، على موارده مما يؤدي إلى تدهور المراعي. وكثيراً ما تتعرّض المناطق الجافة إلى فترات تنحبس فيها الأمطار، وقد تستمر بضع سنوات متتالية. وهذه الفترات الجافة تسهم في تدمير الغطاء النباتي، خاصة عندما يكون استخدام المراعي كثيفاً أو غير مرشد.

وعلى الرغم من أن الظروف المناخية تمثل عاملاً مهماً في تدهور المراعي الطبيعية، إلا أن الغطاء النباتي في هذه المناطق عادة قادر على مقاومة الجفاف ذاتياً، فعندما تعود الأمطار إلى طبيعتها تعود معها الأنواع النباتية إلى النمو، ويستعيد الغطاء النباتي وضعه الطبيعي المتوازن مع البيئة مرة ثانية.

وتؤكد هذه القدرة الذاتية على إعادة التوازن الطبيعي للغطاء النباتي، في المناطق الجافة، حقيقة مهمة، وهي أن تدهور المراعي الطبيعية ظاهرة بشرية بالدرجة الأولى، وأن الإنسان نفسه هو صانع هذه الظاهرة. ويتمثل أثر الإنسان في تدهور المراعي في أمرين هما الارتفاع السريع في معدلات النمو السكاني من ناحية، وسوء استخدام الأرض من ناحية أخرى، حيث يؤدي النمو السكاني السريع، وتزايد قطعان الماشية في الوقت نفسه، في مناطق المراعي الجافة وشبه الجافة، إلى تكثيف استخدامات الأرض، والرعي الجائر والمبكر، الذي يؤدي إلى تدهور الغطاء النباتي والأنظمة البيئية لهذه المراعي مما يدفع بالضرورة السكان وقطعانهم إلى التحرك نحو المناطق الهامشية التي تتصف بالتذبذب المناخي، وبحساسية أنظمتها البيئية لأي ضغط، ولو محدوداً، على الأرض. ويزيد من حدة المشكلة أن سلوك الناس لم يكن رشيداً في استغلالهم للأنظمة البيئية، بل همهم، الأول والأخير، هو الحصول على الغذاء لهم ولقطعانهم، بغض النظر عمن سيأتي بعدهم.

وقد أدت الزيادة المطردة في عدد السكان منذ بداية القرن العشرين، وما تبعها من زيادة في عدد الحيوانات، إلى تكثيف الاستخدام الزراعي، والتوسع في زراعة الأراضي الهامشية التي كثيراً ما تكون بحكم الظروف المناخية المراعي الأكثر خصوبة والأكثر إنتاجية. وبهذا يقتطع جزء هام من أراضي المراعي الطبيعية عالية الإنتاج، ويختل التوازن بين عدد الحيوانات من جهة، والطاقة

الإنتاجيـة للمراعي من جـهة أخرى، ويزيد الضغط كثيراً على بـاقي المناطق الرعوية نتيجـة للرعي الجائر المستمر، والرعـي المبكر. وهـذان النوعان مـن الرعي؛ الجائر والمبكر، من أهم أسباب تدهور الغطاء النباتي للمراعي الطبيعية. كما تؤدي زراعة الأراضي الهامشية في المناطق الجافة إلى تعرية التربة من غطائها النبـاتي، مما يجعـلها عرضة لـعوامل التعرية المائيـة والريحية. فتزول نتيجة لذلك الـطبقة الـسطحية الخـصبة من التربة، وهي الطبقـة التي تصلح لنمو النبات، ويبدأ ظـهور الطبقة التحتية. وتكون النتيجة في النهاية تدهور الأنظمة البـيئيـة في كـل من أراضي المـراعي والأراضـي الزراعـية مـعاً، وإشـاعة التصحر فيهما.

يضاف إلى ذلك التغير الملحوظ الذي طرأ على نظم إدارة القطعان في المراعي الطبيعيـة، بعد أن ظلت حتى منتصف القرن الحالي تقريباً معـتمدة على النظم التقليديـة المتوازنة. فقد كانت القطعان ترعى في منـاطق نفوذ محددة للقبـائل والعشائر خلال موسم الرعي الذي يمتد منذ بدء موسم الأمطار حتى جفاف مصادر المياه المتاحة للشرب، فترحل القطعان إلى المناطق المزروعة للاستفادة من مخلفاتها أو إلى المناطق الرعوية الأخرى التي تتوافر فيـها مصـادر للمـياه. وهذا الـرحيـل الإجباري يساعد في المحافظة على الغطاء

نقل القطعان من مرعى إلى آخر بالسيارات أسلوب مدمِّر للغطاء النباتي

النباتي، وحمايته من الرعي الجائر، ويتيح له الفرصة للتكاثر. كما أن تعاقب سنوات الجفاف يؤدي إلى نقص واضح في أعداد الحيوانات، يتناسب مع النقص في حمولة المراعي مما يتيح المحافظة على التوازن البيئي.

وقد أدى إلغاء أنظمة الرعي العشائرية في بلدان الجزيرة العربية، وجعل الرعي في المراعي الطبيعية متاحاً للجميع، إلى فقد الرعاة اهتمامهم بالمحافظة على المراعي وحمايتها. كما أدى الرعي المطلق (أي حرية الرعي في أي مكان وزمان)، وسرعة إنشاء طرق المواصلات الحديثة، والطرق الزراعية، وتوفير وسائل الانتقال السريعة كالسيارات، إلى الإسهام في تفاقم ظاهرة تدهور المراعي الطبيعية. فقد أصبح في استطاعة أي من سكان البادية الانتقال إلى أبعد مكان في المملكة بحيواناته خلال أيام معدودة فقط عند سماعه بهطول الأمطار في ذلك المكان، خاصة أن تأمين مياه الشرب لتلك الحيوانات أصبح ميسوراً ينقل بالسيارات، مهما كان موقعها بعيداً عن مصادر المياه.

وقد أضعف اندثار نظام الحمى، الذي كان سائداً بين القبائل والقرى، الشعور بأهمية المحافظة على أراضي المراعي والغابات، فتسابقت القبائل والقرى للاستفادة من الأشجار والنباتات، إما بالرعي الجائر أو الاحتطاب والتفحيم، وقطع الأخشاب لبناء المنازل، وللاستعمالات الأخرى.

وقد تعذر تطبيق الدورات الرعوية في المرحلة الماضية، وحتى في المرحلة الحالية، لأسباب عديدة، منها الاجتماعية والعرفية والتقنية والطبيعية، مما أدى إلى زيادة الضغط الرعوي، وتدهور الغطاء النباتي الطبيعي، حيث حلت فيه نباتات سامة أو غير مستساغة محل النباتات الرعوية الجيدة. كما ساعد على ذلك أيضاً توافر مصادر دائمة لشرب الحيوانات من السدود السطحية والآبار الارتوازية في مناطق مختلفة من المراعي. فلم تعد المياه تشكل سبباً لأن تترك الحيوانات هذه المناطق، فتحولت إلى مناطق للرعي الدائم.

ومن ناحية أخرى، كان دخول الجرارات الزراعية وفلاحة الأراضي الهامشية وأراضي الفيضات، لزراعتها بالشعير والقمح شتاءً، والبطيخ والشمام صيفاً، سبباً في تدهور المراعي الطبيعية.

أدت هذه العوامل كلها إلى زيادة الضغط على المراعي الطبيعية، وإلى

ترسيخ ظاهرتي الرعي المبكر، والرعي الجائر. وقد ظل يرافقهما، نتيجة البقاء الطويل في مناطق البادية، ازدياد احتطاب الأشجار والشجيرات الرعوية، مما جعل تدهور المراعي الطبيعية يتزايد عاماً بعد عام نتيجة التأثيرات المتبادلة بين سوء استعمال الإنسان لموارد المراعي الطبيعية، ومختلف الظواهر البيئية والمناخية الأخرى.

وتأخذ ضغوط الإنسان على البيئة أشكالاً عدة، أهمها وأكثرها فاعلية في تدمير المواطن الفطرية وإنشاء التصحر، إضافة إلى الرعي الجائر، التوسع الزراعي في أجود أراضي المراعي الطبيعية، واستخدام نظم وأساليب زراعية غير رشيدة لا تناسب الأراضي الحدية أو الهامشية في المناطق الجافة وشبه الجافة. يضاف إلى ذلك الاحتطاب وقطع الأشجار والشجيرات في مناطق الرعي، بسبب الحاجة إلى أخشابها للوقود أو البناء، أو غيرهما من الاستخدامات الأخرى. ويؤدي ذلك إلى النتيجة نفسها التي يؤدي إليها الرعي الجائر. فتناقص أعداد الأشجار والشجيرات، بسبب الاحتطاب الجائر، يعني تناقص كثافة الغطاء النباتي، الذي يساعد على تماسك حبيبات التربة وصيانتها، ويقلّل من خطر السيول السطحية. ويؤدي هذا بدوره، تحت ظروف الجفاف والرعي الجائر، إلى تعريض التربة للتعرية بفعل الرياح والأمطار، فتفقد طبقتها السطحية الخصبة الغنية بالعناصر الغذائية الضرورية لنمو النبات. كما تفقد قدرتها على الاحتفاظ بالرطوبة، أي تفقد صلاحيتها لأن تكون بيئة مناسبة لنمو النباتات مما يؤدي إلى مزيد من التدهور للغطاء النباتي، ومزيد من التعرية إلى درجة تفقد فيها التربة قدرتها على إعاشة النباتات كلية. وقد أدى الإسراف في قطع الأشجار الفطرية النامية في الطبيعة، من دون التعويض عنها بزراعة غيرها في مكانها، إلى تحوّل الأرض الخضراء إلى جرداء، وإلى إلحاق ضرر كبير بمصدر ثروة مهمة، من الثروات الطبيعية المتجددة.

ويقدر الباحثون معدل الاستهلاك اليومي من الأخشاب، في المناطق

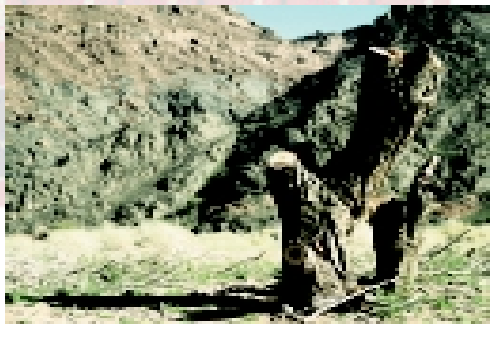

الجذنة: الجزء المتبقي من الشجرة

الجافة، بكيلوجرام واحد لكل شخص في اليوم. وأسرة من خمسة أشخاص قد تتلف سنوياً ما تحتويه مساحة هكتار (١٠٠٠٠م٢) من الأشجار والشجيرات، وإذا أخذنا في الاعتبار بطء عملية تجدد هذه الأشجار والشجيرات، وضخامة الاستهلاك، أدركنا مدى عملية الاستنزاف التي يتعرض لها الغطاء النباتي في المناطق الجافة، وصعوبة تعويضه وإعادة تأهيله.

وتشاهد في كثير من المناطق الجبلية والنجود بقايا أشجار قديمة، وأصول أشجار ممتدة بين الصخور، تدل على أن هذه المناطق الجرداء كانت فيما مضى مناطق ذات أشجار باسقة. وقد أصابها الدمار بسبب جهل الإنسان واعتدائه عليها، فتلفت وبادت، حتى استحالت تلك البقاع قفاراً جرداء.

وقد يخيل للمرء أن الحديث عن موضوع الاحتطاب أضحى من نافلة القول. فمن المفروض أن ينتهي عصره مع توافر البترول والغاز الطبيعي ورخص أسعارهما، وتوافر وسائط النقل حتى في أقصى أرجاء الصحراء ولأفقر الناس، إلا أن الواقع خلاف ذلك. فما زالت السيارات المملوءة بأخشاب أشجار السلم تروح وتغدو في مناطق المملكة مثلاً وبلدان الجزيرة كافة، خاصة في مدن سكاكا وعرعر والقصيم وعسير، بل حول مدينة الرياض. كما

الاحتطاب الجائر

أن أكوام الحطب أضحت من المشاهد المألوفة حول خيام أولئك الذين ينتقلون تدريجياً لحياة المدينة، وفي كثير من أسواق الفحم والحطب خارج المدن. ويقدر الباحثون أن مساحة قدرها ١٢٠ ألف هكتار من أراضي المملكة تُعَرّى سنوياً من أشجارها وشجيراتها. كما قدرت مساحة النباتات التي تقلع سنوياً في منطقتي عنيزة وبريدة بحوالي ٢٥ ألف دونم. وهناك ٤٠٠٠٠ هكتار من مراعي الشمال تُزال شجيراتها كل عام. وتقدر تكاليف إعادة تشجير المساحات التي تقطع أشجارها وشجيراتها في المملكة بما يصل إلى ثلاثة مليارات ريال سنوياً.

ومن أخطر مظاهر الأضرار التي تلحق بالأشجار قيام بعض القرّاشه، أي تجار الحطب أو الحطّابة بقطع الأشجار الخضراء بمناشيرهم خلال فصل الصيف وترك هذه الأشجار المقطوعة حتي تيبس وتجف تحت حرارة الشمس ثم يقومون بتقطيع جذوعها وفروعها وتحميلها لبيعها في الأسواق. وفي بعض الحالات ينزع الإنسان اللحاء عن الشجرة وبذلك يقطع مسار الغذاء من الجذور إلى الساق فالأغصان فالأوراق فتموت الشجرة بعد حين. وقد تقوم الحيوانات وخصوصاً الماعز بهذه العملية مما يؤدي إلى النتيجة السابقة نفسها.

تجارة الحطب عامل مدمِّر للأشجار والشجيرات

الماعز واقفاً على رجليه الخلفيتين للوصول إلى الأغصان العليا من الشجرة

وقد أوضحت الدراسات التي أجريت في المملكة على هذا الموضوع أنه لم يعد هناك نباتات شجرية أو شجيرات باقية بالقرب من المدن أو مراكز التجمعات السكانية. وقد ازداد اتساع هذه المناطق الخالية من النمو الكثيف للأشجار والشجيرات لازدياد السيارات الناقلة للخشب المقطوع التي أخذت تتوغل أكثر فأكثر حتى داخل المناطق الرملية سعياً وراء الوقود وجمع الأموال.

ولا يتوقف تأثير إزالة الغطاء النباتي الشجري والشجيري على تعرية التربة وتصحرها فقط، بل إن الحيوانات التي ترعى في هذه المناطق تضطر إلى أن تتغذى على النباتات الصغيرة الباقية فيها. وسرعان ما تؤكل هذه النباتات الصغيرة حتى جذورها، فلا يبقى لها أثر بعد ذلك، الأمر الذي يؤدي إلى اختفاء الغطاء النباتي كلية وتخريب التربة، واستمرار تقلّص المراعي الصالحة للرعي، عن طريق انقراض النباتات الصغيرة التي تعتمد عليها الحيوانات. كما تهجر هذه المناطق الأعداد المتبقية فيها من الأنواع الحيوانية الفطرية لتنتقل منها إلى مناطق أخرى مناسبة تأوي إليها. أما إذا لم تجد مناطق تؤويها فسرعان ما تضعف وتموت، وقد يكون في ذلك انقراض

لأنواعها. ونظراً لانخفاض إنتاجية المراعي بسبب الاستغلال الجائر، فإن المواشي الجائعة تلتهم أوراق الطلح وغيرها من الأشجار الباقية، قليلة الارتفاع، حيث تصل إليها بالوقوف على أرجلها الخلفية. كما أنها تلتهم كافة الأوراق التي تسقط على الأرض، وكذلك الثمار والبذور وكل ما ينمو حديثاً. فلا تعطي الفرصة لإنبات أي أشجار جديدة أو نموها، الأمر الذي يؤدي إلى اختفاء الأشجار وزيادة تدهور المراعي والغطاء النباتي بشكل عام.